محمد مزيد

رواية

الكتاب: نساء هليل الثلاث
المؤلف: محمد مزيد
التصنيف: رواية
تصميم الغلاف: الياس سلام
التنسيق الداخلي للكتاب: مؤسسة ابجد
ISBN: 978-9922-9735-9-3

الطبعة الاولى
2022
مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع اربعين
جوال: **009647831010190**
info@ebjed.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الانترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.

محمد مزيد

رواية

نساء هليل الثلاث

اهداء:

الى / مالك المطلبي

1

وجدَ هليل نفسه، غير قادرٍ على عبور البحر، بإتجاه احدى الجزر، بقي يتجول في غابة أشجار الزيتون. أستدل على كوخٍ صغيرٍ قرب تلةٍ.
دخله، تفحّص المكان، وجده مناسباً، وضع فيه حقيبة ملابسه، خرج منه، راح يتطلّع الى الغابة، لعله يصادف آخرين تورطوا بانتظار مهرّبي البشر، كي ينقلوهم الى الضفة الأخرى. يعلّم أن هؤلاء الآخرين، مثله، فقدوا الأمل في بلادهم، جاءوا الى هنا لعبور البحر بإتجاه أوروبا.
سار في عمقِ الغابة، في وقتٍ، بدا قرص الشمس يختفي خلف التلال.
صادف امرأة في عمر الأربعين، تقود رجلاً ضريراً من يده، بدا عليهما الإجهاد والتعب. تعاطف نحو الرجل الضرير.
لاح له، على بعد مئتي متراً، امرأتان ورجل، يسيرون أيضاً بخطى متعثرة، يبدو عليهم الضياع في الغابة، يبحثون عن مكانٍ يلجئون إليه بين أشجارها الكثيفة.
أدرك هليل، إنه ليس وحده، في هذا المكان الموحش.
اختفت خيوط شمس الغروب من الغابة، حلّ الظلام.
بخبرته في الحروب، يعرفُ أنّ للغابةِ أسرارها في الليل.
أبتعد كثيراً عن الكوخ، دفعه الفضول للتجوال، لعن فضوله، بعد أن تبيّن إنه استطاب في النأي عنه كثيراً.
بنزول خيمة الظلام شيئاً فشيئاً، عاد بخطواتٍ سريعةٍ، حيث ترك حقيبته الصغيرة التي كان يحملها على ظهرهِ، فيها وثائق سفره وعناوين

أصدقاء سبقوه للهجرة الى اوروبا بعد انتهاء آخر حرب تورّط بها البلد مع جيرانه.
يسير الى الكوخ، منقطع النفس، لاحظ إختفاء المرأة التي تقود البصير.
غذّ خطاه، وصل الى الكوخ، وجد امرأةً واقفةً في منتصفه، تقلّب في حقيبته ودفتر العناوين، يجلس الرجل الضرير على السرير الخشبي.
- هذه حقيبتي.
تناهى إليها صوته العميق،
التفتت مذعورة، وجهها أبيض، عينان كبيرتان عسليتان، شعر أسود طويل وضعت يدها على صدرها:
- خرّعتني!
آسرّهُ صوتُها، ركّز نظره بالعيّنين العسليتين:
- هذا كوخي، وهذه حقيبتي.
ردّ الرجل الضرير:
- هل لديك طابو بالكوخ؟
أطلق ضحكة، أستفّزت هليل، اختفى تعاطفه الذي ابداه له، حين لمحه، قبل ساعةٍ تقوده المرأة.
- ألا تعلمان إنني وضعتُ حقيبتي فيه، إي إنني حجزته قبلكما؟
ترتدي المرأة ثوباً بنفسجياً بخيوطٍ مذهبةٍ يتدرج تحت ركبتيها، يعكس جمال جسدها من الخلف، كأنمّا عنقود عنب ناضج، ترتدي حذاءً رياضياً، لا يتلائم مع إناقة الثوب، عقدت شعرها الأسود مثل ذيل حصان، فمها الصغير مرطب باللعاب مرصع باللون الأحمر.
جلست بجانب الرجل، لصقت فخذها به، جلس هليل أمامهما، على دكةٍ خشبيةٍ لساق شجرة.
رفع عينيه بصعوبةٍ عن الساقين البيضاويتين المبرومتين كالمرمر.

بيّن لهما:
- لا أريدُ أن أسبب لكما الحرج، هذا الكوخ كوخي، سيكون الحلّ، أن نبقى فيه ثلاثتنا لمواجهة ظلام الغابة، وإي مفاجآت قد تحدث، حتى الصباح.
لمّا أنهى جملته، عاد يقلّب أعماق روحه، المتشوّقة للجمال، للأنثى، يظن إنه يكمن روعتها في ذلك المصدر الغامض للنبع الأنثوي.
عاد ينظر الى الساقين المترعين، لعلها تخطئ لتفتحهما، ولو بضعة سنتميترات، حتى يرى مركز لقاء عمودي الرخام الآلهيين، مركز مهرجان الجمال على حقيقته الناصعة، حتى يتجرّد من تراكمات القلق المستوطنة في روحه الضائعة.
ابتسمت المرأة، أشاعت في نفس هليل سحراً، غير أن الرجل الضرير، قال بخشونةٍ، لا تتلائم مع عماه المثير للتعاطف:
- كيف تسمحُ لنفسكِ البقاء معنا، في نفسِ المكان، في هذا الليل؟
ردّ هليل بهدوء:
- ألا يجدر بنا أن نكون مسالمين يا أخي، نحن بعيدون عن بلادنا؟ أنا عثرتُ بصعوبةٍ على هذا الكوخ، الليل في الغربة لا يرحم أحداً.
أرتفع صوت الرجل الضرير:
- كيف تريدنا أن نكون مسالمين، وأنت تقول الكوخ كوخي، هل تعلم كيف هربنا من حروب بلادنا؟
- أنا مثلك هارب منها أيضاً.
تبحثُ المرأة بعينيها، في أرجاء الكوخ، فقالت:
- لا يهّم، إن بقيت معنا، نحتاج الى حطب وقداحة وماء.
نسى هليل غضبه، حين سَمِعَ صوتها ثانية، أستلّذ بسحرهِ وطريقتها المتقطعة في الكلام، صوتُها عبّر عن خوف الأنثى المستديم، أبتسم لها:

- ما دام الأمر هكذا، يُمكنني جلب الحطب، عندي قداحة، علينا الحصول على الطعام أولاً. هناك ساقية قريبة منا، نلجأ إليها للتزود بالماء، إن احتجنا إليه.

سحبت المرأة الحقيبة الكبيرة، في محاولة ماكرة لإيقاف اشتعال تلصصه الهادر الى فخذيها، فوضعتها بينهما، نطقت:

- لدينا معلبات تكفينا للعشاء.

أفردت ثلاثة أصابع وهي ترفع يدها مبتسمة، لم تبذل عناء وهي تشير بإصابعها إليه، مادام زوجها لا يرى، نهض هليل مسروراً، من حركة أصابع المرأة. كاد أن يتصور إنها عديمة السخاء معه، لما وضعت الحقيبة بين فخذيها.

قائلاً:

- سأجلّب الحطب، قبل أن يحّل الظلامُ الدامس. لديكِ القليل منه عند عتبة الباب، يمّكنكِ أشعالها ليّ حينما أعود، قد يضيّعني الظلام.

ردّ الضرير ضاحكاً:

- الآن ظهرت عراقيّتك الأصيلة. أرجو أن تعود ولا تضّيعه.

خرج من الكوخ، اختفى في الغابة.

2

تذكّر هليل تلّويحة أصابع المرأة الثلاثة، وهو يبحث عن الأغصان اليابسة في ظلام الغابة من خلال مصباح قداحته، أفعمت مشاعره تضامنها الخفّي معه، غمرت روحه بالسرور.
لاحظ أن رطوبة الأرض، تعود الى أن السماء، أنزلت كل ما تحمّله من المياه، أمّطرت مطراً غزيراً ً قبل ساعات، أسدَلَ الظلامُ ستاره تماماً، ولم يعدّ يرى فيه حتى أصابعه.
ظل يردّد، أنه محارب قديم، " لن أضّيع مكان الكوخ، الذي تركته خلفي، حيث يجلس فيه الرجل الضرير مع زوجته الفاتنة ".
الكوخ خلفه، سار بخطٍ مستقيم، طريقة تعلّمها منذ أيّام حرب أيران، حتى لا يضيع في الظلام، حينما كان جندياً في الجبهة، يتركُ موضعه في الليل.
عثر على أغصان قليلةٍ جافةٍ، لا تفي بالغرض، إن أرادوا الطبخ أو صنع الشاي، بعد العشاء.
لا تحمل حقيبته، سوى البسكويت المالح، يُحب تناوله في الفطور، وملابس قليلة، من بينها قميص أزرق أهدته إليه امرأة غابت ذات يوم، في إزمانها البعيدة، وتركته منغمساً ًبجرحه النازف، يُرّبكه الظلام، لم يفقدُ الأمل في العثورِ على الكوخ، أثناء عودتهِ إليه.
نسي أن يترك القداحة عند المرأة، كي تشعل بعض الأغصان، عند عتبة الكوخ، طمأن نفسه أنه سيهتدّي الى مكانهِ.

تنطوي روحه على أحاسيس رائعة بأنه سيمضي ليلته بقربِ امرأةٍ جميلةٍ.
يحتضن الأغصان تحت ذراعه، يُحاول العثور على سواها، بضرب قدمه في الأرض، لعله يجد آخرى، مازالت طوية ذراعه تتسع للمزيد منها.
أثناء ضرب الارض في الهواء بخفةٍ ورشاقةٍ، أصطدم قدمه بشيء ما، شيئاً ثقيلاً، توقف في مكانه، أنحنى يتحسّسه، تصور إنه قد يكون كومةً كبيرةً من الأغصان، وجده صخرة ملساء مبللة أبتسم، ردّد "اللعنة على الظلام".
سار بخطواتهِ البطيئةِ بإتجاه الكوخ، وهو يفكر،" كيف سينام هذه الليلة، مع الضرير وزوجته في مكانٍ واحدٍ، هل يتسع السرير لثلاثتهم؟ الحل، سيكون منامه في طرف السرير، عند الجدار، بينما يرقد الزوج بينه وبين المرأة، الممتلئة الجميلة".
شعر بالغبطة، لأنه سينام على سريرٍ واحدٍ مع رجل أعمى وزوجته الفاتنة. تساءل كيف سيكون حاله، عندما يريد الذهاب للتبول، بعد منتصف الليل، فيما الاثنان نائمان، قال "هي ليلة واحدة، إن عدّت سينتهي إي إحراج".
خيّل إليه، عندما يستيّقظ، ليتجه في ظلام الغابة الى العراء، بحثاً عن مكانٍ، حتى يقضي حاجته، ثم تستيّقظ المرأة معه، فيما زوجها يّغط في النوم العميق! "كلا، لن يدع اجنحة الهسهسة تضعف أصالته وتطير به"، أكد لنفسه "أن طبعه الأصيل، يمنع عنه إي جنوحٍ للهسهسات، بالرغم من إنه منذ سنوات، لم يعاشر إي امرأة".
بقيت صورة تلويحة الأصابع الثلاثة، تمشي معه، تلوّح له، مع ابتسامتها الآسرة.

يعرف هليل أن قلبه شديد الحساسية مع النساء، لكنه لن يفكّر كثيراً في إغواء هذه المرأة، التي تصاحب رجلاً ضريراً الى أوروبا.
تساءل ضاحكاً: ما الذي يجعل رجل أعمى يترك بلاده، ليتجه الى مكان مجهولٍ، سوف لا يرى فيه إي شيء؟ ولديه امرأة بهذا الجمال؟ أكد لنفسه "أنها الحروب، تدفع الناس الى الهرب من البلاد".
يسير الآن بإتجاه الكوخ، تذكر إنه سمع قبل قليل، صوت خرير المياه، بحث عنه يميناً، فوجده.
مدّ يده الآخرى غير المشغولة بحمل الأغصان، تأكد أنه خرير مياه، انتهت معاناته، في أن يعالج قضاء الحاجة الليلية، أو شرب الماء أو صنع الشاي.
تذكر أنّ في الكوخ، ثمة دلاء، فضلا عن وجود آواني بلاستيكية مطروحة أسفل السرير.
تسرب برد أكتوبر تحت قمصلته الجلدية السوداء.
وصل الى الكوخ، لما دخل إليه، فوجئ بوجود آخرين. كانوا المرأتين والرجل، شاهدهم قبل غروب الشمس يتجولون بحثاً عن مأوى.
لا يدري كيف أنير الكوخ بفانوس من وسطه! لاحظ أن المرأتين تتطلعان إليه بنظرات متسائلة، وجهاهما حمراوان من البرد، قالت المرأة زوجة الضرير:
- لدينا ضيوف سيشاركوننا الكوخ،
رحب هليل بهم، فكر " كيف يتسع لنا جميعا؟ "

3

وقف هليل في منتصف الكوخ، ينظر الى الضرير وزوجته، جالسين على السرير، ثم الى الرجل والمرأتين، وهم يتكئون الى الجدار قبالة الضرير وزوجته.

يميّز المرأتين، تجلس الى يمين الرجل "أم شامة" جميلة الوجه أبيض، مبتسمة، على صفحة خدها الأيسر المترف شامة كبيرة، لا يعرف معنى ابتسامتها أأعجابا أم سخرية، الثانية ذات أهداب طويلة، كأنهما مظلة لعينيها السوداويتين، أطلق تسمية عليها "أم رموش"، نظرتها جادة، لا تتلائم مع روعة مظلة أهدابها الغريزة.

قال هليل:

- أهلا وسهلا بالضيوف، (أردف ساخرا) ماكو بعد وياكم أحد، تره الكوخ سفينة نوح، تتسع لكل العراقيين الهاربين من البلد.

ضحكت زوجة الضرير، لم يبادلها زوجها ضحكتها، غير أن الثلاثة ابتسموا لطرافة هليل وأريحيته.

رد الرجل المصاحب للمرأتين:

- ولو زحمة عليكم، ليس لدينا مأوى غير هذا الكوخ، نشارككم به وقد حل الظلام.

لم تعجب هليل طريقة كلام الرجل، يتحدث ويلتفت الى " أم رموش" كل ثانية، كي تؤيده بكل حرف نطقه.

عاب عليه اصطحابه لامرأتين في مغامرة محفوفة بالمخاطر، لا أحد يتوقع نتائجها.

بدا على "أم رموش" ذات الوجه النحيف متجهّمة، حاذقة، في عينيها شراسة وتحدٍ على العكس من "أم شامة" تبدو مرحة، ساذجة ثمة تباعد بين حاجبيها المقوستين، وانف صغير، تبتسم للجميع، تنظر الى هليل بكثير من الوّد.

لاحظت زوجة الضرير، اهتمام "أم شامة" بهليل. يفهمّن النساء بعضهن البعض بسرعةٍ وسهولةٍ، كأنها تقول لنفسها: "أنا مثلك معجبة به أيضاً".

كان الجميع ينتظرون المبادرة من هليل، الذي وقف عاجزاً عن التعبير عما يجول في خاطره، يفكر بتدبير العشاء اولاً، يريد أن يجد مكاناً لمنام هؤلاء الثلاثة، لا يعرف لحد الآن الصلة بينهم.

قالت له زوجة الضرير:

- هل تعلم أن وراء هذا الباب، مطبخ كامل العدة، فيه أواني وملاعق وصابون وصحون، غير أنه مظلم، فيه ثقوب أسفل جداره، تؤدي الى الخارج، بسبب الظلام، خفتُ من البقاء فيه طويلاً.

دهش هليل من وجود هذا الباب، لم ينتبه إليه، قبل أن يذهب لجلب الأغصان.

أضافت زوجة الضرير:

- وجدت فيه فانوساً، كما ترى، لم يكن، صعباً إيقاده.

تضايقت "أم شامة" من تقطيع كلامها، وحركات يديها المفتعلة، المرتبكة.

يعجب هليل صوت هذه المرأة، تتحدث ببساطة، عباراتها متناغمة، حتى لو كانت متقطعة، صوتُها يحلّق به في الماضي البعيد، يذكّره بتلك المرأة التي تركته، قبل سنوات بعيدة.

خاطبهم هليل:

- يجب أن نفكّر اولاً في العشاء، ثم نخطط كيف ننام في هذا الكوخ الجميل.
في تلك الإثناء، جاءت امرأتان، وقفتا عند عتبة الكوخ، تبدوان غريبتان، أحدهما جميلة على إنفها قرط فضي والأخرى، ذات وجه مستطيل، أستغرب من جمال حاجبيها، قالت:"المستطيل" باللغة الإنكليزية، وبلكنة إيرانية:
- ضعنا في الغابة، فهل لديكم مكان تضيفوننا بالبقاء معكم هذه الليلة فقط؟
بإنكليزية واضحة قالت زوجة الضرير:
- من أي بلدٍ أنتما؟
ردت عليها:
- من إيران، وصلنا قبل يومين، أخذ المهربون مالنا وهربوا، الظلام حاصرنا، رأينا الإضاءة في الكوخ، جئنا لكم، نطلب ضيافتكم، إذا سمحتم.
لأول مرة تضحك المرأة المتجهمة "أم رموش". قالت:
- نحن هربنا من حروبنا الطائفية، من ماذا هربتم إنتما؟
ترقرقرت الدموع في عيني ذات الوجه المستطيل، ولم تجب.
ندت ضحكة عن "أم شامة" ساخرة:
- الكوخ "الجميل"، يتسع للجميع، صارت سفينة نوح صدك يا كابتن.
وجهت كلامها الى هليل الذي أثارته ضحكتها، ترتدي ثوباً أسود يلتصق عليها، يكشف مفاتنها المزدهرة، تجلس على ركبتيها في حالة سجود، بسبب ضيق المكان.
على العكس من "أم رموش" التي ألصقت فخذها الايسر فوق فخذ الرجل، تنظر كثيراً الى الإرض.

نظر هليل الى ذات الوجه المستطيل، كان يعلم إنها لن تجيب عن تساؤل "أم رموش"، بعد أن لمعت عينيها بالدموع، هذا هو طبعهم، الكتمان وعدم البوح، الا للضرورات. ظل هليل مستغرقا في النظر الى جلسة "أم شامة" المثيرة.

كشف ثوبها الأسود الحريري، عن طبيعة انحناءات جسدها الرشيق، ووركيها العريضتين.

عاد ينظر الى الفتاتين، قال هليل لهما، عبر المترجمة زوجة الضرير:

- أهلاً وسهلاً بكما في سفينة نوح، تفضلا.

نظر الى زوجة الضرير، وجدها مشمئزة من سخرية "أم شامة"، فكر بمكونات الغرفة الثانية (المطبخ).

دخلها على ضوء مصباح القداحة، لما خرج، قال:

- أصبحت الأمور سهلة، يمكن للفتاتين المبيت في المطبخ، وأنتم الثلاثة تنامون في الصالة.

سأل هليل الرجل المصاحب للمرأتين:

- أيمكنني معرفة صلتك بهما؟

متلهفة تريد أن تتحدث، ردت "أم شامة":

-هذا أخي، هذه زوجته، أنا امرأة وحيدة، أرملة، قتلوا زوجي أيام الطائفية!

شعر هليل بالاسى والحزن لمقتل زوجها، جثم على صدره هواء ثقيل، أزاحه بزفير قوي.

تضايقت زوجة الضرير لمّا قالت "أم شامة" إنها امرأة وحيدة، فكرت أن قولها يحمل إيحاءً واضح الدلالة، لا يغرب عن بال إي سامع له.

أشار هليل للفتاتين:

- تعالا أجلسا هنا، مدّ يده الى جهة جدار المطبخ:

- أنتما سيكون لكم المطبخ، نحن لنا صالة الكوخ.
لم تفهم الفتاتان، ماذا قال لهما، لأن زوجة الضرير سرحت بفكرها وهي تنظر الى "أم شامة ".
علم هليل انها سارحة الفكر، التفت اليها وأعاد جملته، فقامت بالترجمة.
"أم شامة" ساخرة:
- الكوخ "الجميل"! صار صدك سفينة نوح، ثمانية أشخاص في مكان لا يتسع الا لنفرين!
غرد أخوها:
- ميخالف، هي ليلة واحدة فقط، المهم إننا، لانبيت في المطبخ، لأن فيه ثقوب ونخشى من تسلل العقارب والافاعي.
توقف ينظر الى هليل بمحبة، قائلا:
- ننام هنا على أرضية الكوخ. الفتاتان الإيرانيتان تنامان في المطبخ، حتى عندما تقترب العقارب والافاعي من الفتاتين وتعلم أنهما من إيران ستهرب منهما.
ثم ضحك لوحده ببلادةٍ، لم يهتم لعدم مشاركة ضحكته أحد.
نظرت له "أم رموش" عقدت فيها حاجبيها "ما هذا السخف يا زوجي العزيز؟".
مازالت "أم شامة" ساخرة، تريد أن تثير أجواء المرح:
- فندق خمس نجوم. ولا بالأحلام.
وافقت "أم رموش" على قول هليل بمبيت الفتاتين بالمطبخ بهزّ رأسها.
حلّ صمت عميق، ثمة نظرات متبادلة بين النساء الثلاثة، تجاه المرأتين، اللتين تجلسان على أرضية الصالة، بين سيقانهما حقائبهما، يبدو عليهما القلق والخوف، تنظران الى كل الوجوه بفضول.
بيّن الضرير:

- لم لا، دعهم ينامون هنا عزيزي في المطبخ، عفوا لا نعرف أسمك؟
- أسمي هليل.
ضحكت الساخرة "أم شامة" مرة ثالثة:
-هليل!
غضب منها:
- هل يثير أسمي ما يضحكك؟
أجابت بخجلٍ وقد أحّمر وجهها:
- لا والله، أسمك حلو، مثلك.
نظر إليها أخوها ببلاهةٍ، عبّرت زوجة الضرير عن نفورها، لقد كانت عبارتها فاضحة المعنى، ليس فيها حياء النساء.
- هيا لنتدبر العشاء، أخرجوا ما لديكم كي نقضي على جوعنا.
دخلت الفتاتان الى المطبخ، وأضيء المكان بمصباح عندهما. لم يتفوها بكلمة واحدة.

4

من غير أن يتعّمد، حين مدّت زوجة الضرّير، يدها تناوله الملاءة، ليفرشها في وسط الكوخ للعشاء، تلامست أصابع هليل، بإصابعها البيض المخروطة.

راقبت "أم شامة" تلامس الأصابع بين هليل ويّد زوجة الضرير، حين كانت تجهز الطعام باستخراجه من حقيبتهم الكبيرة، تحشرجت، كأنما تقول لهليل "يا كابتن، أنا المرأة الوحيدة هنا، أنا قِبْلَة حنانك".

ألتفت إليها مبتسماً، فهم مغزى نظرتها، كانت حشرجة "أم شامة" عبارة عن أعلانٍ خفي، واضح البيان، بأن "هذا الرجل الذي بلا امرأة، هو من حصتي، أنا الأرملة الوحيدة بينكن".

ثم فجأة، شعرت إنها تافهة، خجلت من نفسها لتوارد هكذا خواطر في ذهنها، غير إنها لما رأت ابتسامته الجميلة، بادلته نصف ابتسامة، فيها مودة جارفة، ودعوة صريحة بعدم التمادي مع زوجة الضرير.

لم تفت حشرجة "أم شامة" على انتباه زوجة أخيها، قرصت فخذها. وهمست بإذنها:

- أثكلي.

ما دفعها للنهوض، والوقوف عند عتبة باب الكوخ. فمازال خجلها من نفسها يتعاظم "من يكون هو؟ ومن أكون انا؟ كي أعّده من حصتي، ماذا جرى بيننا؟ يا لحماقتي!".

ضحكت من سطحية عقلها، بعد تلك التجارب التي عاشتها في الضنك والوحول، في جحيم الحياة التي مرت بها، التي تقاذفت بروحها المرحة اللائبة، لا تعرف إلى أين تتجه بوصلتها، فضلاً عن بكائها الصامت،

على الفقد واللوعة التي عاشتهما بعد غياب زوجها القتيل، الذي ذهب الى البعيد "لم يأخذني معه حتى أخلص من هذا العذاب"، ضاعت أحلامها وطموحاتها بالعيش كريمة في فرصة الحياة، تقول لنفسها دائماً "منحت لي الحياة حتى أحياها بالخطأ، قتل زوجي ولم يترك لي طفلا ينسيني ذكراه القاسية".

التفتت "أم شامة"الى هليل، سألته:

-هل يبتعد مجرى الساقية من هنا كثيراً؟

وضع هليل الملاءة في منتصف الكوخ، نهض، أقترب منها وهي تقف عند عتبة بابه، كانت قد مسحت دموعها بسرعة، قبل أن تسأله سؤالها، الذي لا يحمل معنى، ولا يهدف الى شيء.

عادت تنظر الى ظلام الغابة، وهي تشعر بالخذلان، تتمنى الضياع في هذا الظلام الى الأبد، تتمنى أن تصبح جزءً منه، حتى يكّف شعورها الدامي بإلم الفقدان والوحدة، واللهفة إلى أحضان زوجها.

أقترب منها هليل، لمس مؤخرتها وسطه بغير قصدٍ، أشار الى جهة اليسار بيده اليمنى، احتكت يده برقبتها الطويلة، شعرت بنقر العصافير على مسامات جسدها اليابسة. أحست بشيءٍ سحري لامسها من الخلف.

عندما وقف خلفها، شمّت رائحة رجل، اشتعلت فيها رغبات دفينة في جسدها المسحوق، المتروك، المهمل، منذ زمن بعيد. أول مرة تشمّ رائحة رجل غريب.

منذ خمس سنوات، ياه، خمس سنوات من التعذيب والانتظار والصبر، همس الرجل بإذنها، وهو يتعّمد، مداعبة تلك الطفولة والغنج في نفسها المتطيرة.

يعرف أن سؤالها بلا معنى، وإنها لا تريد فعلا معرفة مكان الساقية، لكنه أدرك أعماقها الملبّدة، وما فيها من صبوات قصية، وأسئلة حائرة، لا أحد

يمكنه الإجابة عليها، أدرك، أنّ هدفها من السؤال، ليس مكان الساقية بحدّ ذاتها، طاوعها مقبلاً إليها، وهي ترسل إليه، إشارات تلو الآخرى، وقف خلفها، هامساً:

- مجرى الساقية من هنا، مسافة خمس دقائق، لا أنصحك بالذهاب إليها وحدك، في هذا الليل الغامض.

التفتت إليه، بعينين ترمشان بجنون، تضحكان، كادت تلامس شفتاها الورديتان شفتيه.

همست بغنج:

-هل تخاف علينا من الحيوانات المفترسة؟

صُعِقَ هليل، دبّت في جسده قشعريرة صاخبة، هو الذي كان يريد إطفاء حرائق هذه المرأة المائعة، المترددة، ظهر، أن روحه هي التي اشتعلت، بحرائق الرغبة واللهفة..

قالت زوجة الضرير:

- أنا أيضا أريد غسل يديّ.

وجهت نظرها الى "أم شامة"، ثم اقتربت منهما.

سحبت زوجة أخيها "أم رموش" دلوا من أسفل السرير، أعطته الى حماتها، قائلة:

- اجلبي لأخيك الماء.

أخذت منها الدلو، خرجت المرأتان مع هليل، أخرج مصباح القداحة من جيب بنطلونه الكتان، أضاء طريقهم المظلم بإتجاه مجرى الساقية، ضوء المصباح لا يفي بالغرض، غير أن شعاع الفانوس خلفهم، يضيء بعض العتمة.

اقتربت "أم شامة" من ذراع هليل اليسرى، تمشي زوجة الضرير بمحاذاة يده اليمنى، التي يحمل بها المصباح.

بين حين وآخر، تتعمد "أم شامة" الاحتكاك بذراعه، يشعر هليل بالتكهّرب والاشتعال، يشبه ما مرّ به قبل قليل، حين وقف خلفها، جعل احتكاك يدها، مساماته الراقدة، تفز كلها من نومها، لا يعرف الى أين تأخذه اشتعالاته!

انشغلت زوجة الضرير، بتتبع ضوء المصباح على أرض الغابة الرطبة. لا يعرف هليل ما يمور في دواخل المرأتين، يمشي بينهما صامتاً.

سألته زوجة الضرير:

- هل وصلنا؟

- كلا.

بلغت "أم شامة" أقصى ارتياحها لهذا الجواب، حتى تحتك ذراعها اليمنى بذراع هليل اليسرى كثيراً من الوقت، سألت الآخرى، أن يحدثها عن أسرار الغابات، هل توجد فيها حيوانات مفترسة؟

تقدمت أم شامة خطوة الى الأمام، مستغلة انشغاله بالكلام عن الغابات وأين توجد فيها الحيوانات المفترسة.

يؤرجح بيده اليسرى، الى الأمام والخلف. أقربت" أم شامة" من حركتها المتأرجحة، وقتّت جسمها ليكون مضرباً لقبضته المضمومة بمؤخرتها الكبيرة.

أرتجت ذراع هليل من ردة فعل المؤخرة المكتنزة، صرخت كل مسامات جسده، أوشك أن يزعق " أنفلكنا والله" بدأت تصهل، في هذه اللحظة، كل عضلات جسده، شعر بالارتباك، وعدم التركيز، كاد يقول " وين راحت الساقية، طارت خو ما طارت ".

تذكر إنه لم يفارق أصوله وأخلاقه الجنوبية العريقة، وإنه في حياته، لم يرتكب حماقة لها مساس بإعراض النساء، أوقف يده عن التأرجح. لكن أين يخبأها؟

لم تكن المرأة الآخرى تعلم ما تفعله "أم شامة"، لاحظت أن هليل يتحدث معها بغير تركيز، مرات تجده يصمت بلا سببٍ، لا تعرف ما الذي يشغله عنها؟

لا تعلم أنه في حالة من الغليان، تمنع استقراره الذي تعرفه عنه خلال الساعة الماضية، بدا عليه الارتعاش، يتضح على شفتيه، شمل جسده كله، أمسى متوتراً، بدأت الكلمات تتطاير من فمه لا تصيب هدفها، وهو يتحدث الى زوجة الضرير عن أسرار الغابات!!

أدركت المرأة الصامتة، بغريزتها، إنها غير قادرة على الإصغاء طويلا الى كلام يطير في الهواء، ولا يدخل في عقلها، أيقنت أنه لابد، ثمة ما يشغله أهم من الحديث معها.

وجدت زوجة الضرير أنّ "أم شامة" تسبقها بخطوة، احتارت، لم فعلت ذلك؟ كادت تقول له "توقف عن الحديث، لست مهتمة بالإصغاء اليك الآن، دعني أرى ما تفعل هذه المجنونة بك".

لكي تتأكد من سبب تقدم "أم شامة" عنهما بخطوة واحدة، أخذت المصباح من يده، بدأت هي التي توجه خط الضوء الشحيح، وبحركة مدروسة، فكّرت بها كثيراً، ألقت الضوء على مؤخرة المرأة.

رأت قبضة هليل تلامسها بحرية واضحة، يبدو الأمر كأنه يسّر "أم شامة" كثيراً، لم تأبه لضرب مؤخرتها وارتجاج ذراع الرجل، كأنما الأمر يمتّع هليل أيضا.

لذلك، فعلت مثلها، بعد أن أعطته المصباح، صارت تمشي بموازاة "أم شامة"، لم تدرك زوجة الضرير، أن ذراعه اليمنى مشغولة بحمل المصباح، لا يحركها بحرية كما كان يفعل مثل اليسرى.

قالت له هامسة:

- أستبدل المصباح الى يدك الآخرى، إذا تعبت هذه؟

قام بتغيير المصباح الى اليّد الآخرى، ليس لأنه تعب، بل لا يريد أن يعصيها، ويخذلها.
بعد الاستبدال، لم يلامسها، كما كان يفعل مع "أم شامة"، كان يريد أن يوقف الاشتعالات في جسده.
شعر هليل بالصراع بين المرأتين، أخذ يبطئ بمشيته، كي تسبقانه، حتى لا يتسبب بتفاقم نزاعهما الخفي، حول ذراعيه.
بعد قليل، قال لهما:
- لقد وصلنا.
سدّد ضوء المصباح الى الساقية، فالتمعت موجاتها.
جلست "أم شامة" على قدميها، مستندة الى وركيها العريضتين، وبغير اكتراث، سحبت ثوبها الاسود الى أعلى ركبتيها، حتى ظهر نصف فخذيها، غسّلت يديها، اغترفت لتشرب منها. وبحركة سريعة، اغترفت ثانية، رشقت عانتها برشقات متتالية من المياه الجارية.
ثم عبأت الدلو، ناولته الى هليل، يقف يسارا بجانبها، يسلط الضوء على الساقية، ينظر الى الفخذين والمؤخرة المتدلية. أنشغل يفكر برشقات المياه الأخيرة الى العانة، ليفهم أسبابها، ولكن أنى له أن يعرف ما يضايّق النساء ويريحهن، في تلك الأماكن الحساسة؟
شرب الماء، لمّا فرغ من ذلك، ناولها الدلو.
قالت زوجة الضرير، كامدة الروح:
- أريد.. قليلا.. من الماء.. إذا سمحتِ.
ناولتها "أم شامة" الدلو فارغا، لوت عنقها تجاه هليل، قائلة لها، وهي تماثل تقطيع عبارتها:
- أخدم.. نفسكَ.. بنفسِك.
ثم ضحكت.

يعلم أن المرأتين، تنظران إليه في هذا الظلام الدامس، تسخران من بعضهما البعض، لا يكشف المصباح وجهيهما، وهما تشربان الماء، أو ما يرتسم عليهما من انفعالات معادية.. لما أرتوت زوجة الضرير، ناولتها الدلو.

ملأته "أم شامة"، عادوا الى مكانهم، بخطوات أسرع من ذي قبل، لم تحرّك الوحشة والصمت الذي يخيم على الغابة، في نفس هليل، شعرة واحدة من الخوف، عاش مثل هذه الأجواء أيام حرب الثمانينات في الجبهة، وصلوا الى الكوخ.

5

أجتمع سكان كوخ غابة الزيتون حول مائدة العشاء أرضاً، بشكل مستطيل، جلس هليل ظهره الى المطبخ، قابله زوج "أم رموش" ظهره الى الباب الخارجي للكوخ، جلس الأربعة الآخرون، الضرير وزوجته من جهة السرير، و"أم شامة" و"أم رموش" على الجهة المقابلة.
في المطبخ، ثمة همس بين الفتاتين الايرانيتين، تعدان العشاء لهما أيضا.
في صالة الكوخ، تجلس "أم شامة" الى جوار هليل و"أم رموش" الى جوار زوجها البليد، تخشى أن يقول كلمة تثير السخرية.
فهو منذ أن دخل الى الكوخ، يحاول استرضاءها، لا أحد ينظرُ الى أحدٍ، تتجه أنظارهم الى محتوى المائدة المنصوبة أرضاً.
بالرغم من أن الطعام كان بسيطاً، لكنه أشبعهم من جوع، ذكرّهم بسنوات الحصار في التسعينات، كيف كان العراقيون يصنعون من القليل، ما يسد رمقهم.
بعد الإنتهاء من تناول الطعام، أخذ الضرير يتمتم بكلمات الشكر، فلا يَفهم أحدُ سوى زوجته ما يقول في وحدته الظلماء.
ما أن صعد الى السرير، حتى نادى عليها:
- صفاء ناوليني المنشفة.
علم الجميع أن أسم زوجته صفاء.
ناولته المنشفة. وجهت "أم رموش" كلامها الى حماتها "أم شامة":
- أحلام لماذا تأخرتم عند الساقية؟ ظننا إنكم ضعتم.

عَلِمَ هليل أن أسم "أم شامة" أحلام، قبل أن تجيب هذه، ناولت قطعة من الجبن الى هليل الجالس بقربها، برطّمت "أم رموش" أسمها رنا، من تصرف حماتها فاقدة الحياء.
كانت أحلام، تريد أن تبرّر سلوكها هذا، بإرسال أشارات واضحة، الى صفاء زوجة الضرير، بإنها هي التي "يحق لها الاهتمام بهذا الرجل الأريحي ما دامت غير مرتبطة برجل مثلهما،".
بعد دقيقة من حفاوة أحلام بهليل عبر قطعة الجبن، مدّت صفاء يدها بحبة زيتون إليه، من دون أن يشعر زوجها، أخذها منها، فهو لا يحب أن يجعل يدها ممدودة.
شعور بالإرتياح أبداه زوج "أم رموش" لاهتمام صفاء بهليل، توقع برغم بلادته، أن حركة الزيتونة لا تخلو من إعجاب.
قبل أن يُرفع بقايا الطعام، من قبل النساء الثلاث، سُمع نقراً فوق سطح الكوخ، نزل المطر.
رفع الضرير رأسه الى الأعلى:
- هل بدأت تمّطر، اللهم خير وبركة، أدعو من قلوبكم عند نزول الامطار، فالله يستجيب الدعاء إثناء هطوله.
ضحك زوج رنا بصوتٍ خافتٍ. تعلم زوجته بجحوده وعدم إيمانه بخالق الكون.
تضامن هليل نفسياً، مع قول الضرير، أستنكر ضحكة الرجل البليد، أوضح وهو ينظر إليه بعمق:
- الدعاء في أوقات نزول المطر يجلب الفرج.
غرّد زوج رنا، الذي كان يبادل هليل نظرة تحمل ضيقاً من عبارته:
- يا يمعود يا فرج، لكان فرّجها علينا نحن العراقيين في سنوات الحصار، والأيام السود التي عشناها بالطائفية.

- كلامك باطل يا أخي، لا تدهرنا، أن الله يهيأ الأسباب، لكي نعمل صالحاً.

شعر البليد، بأنه تلقى رداً قاسياً أمام زوجته وأخته:

- هل تستطيع أن تخبرني من الذي أفقدك بصرك؟ إذا قلت إنه من الله، فما هي حكمته؟ أما إذا قلت، كان ذلك من البشر، فما هي دوافعهم؟ من حركّهم لارتكاب هذه الأفعال بحق الناس الأبرياء؟

أجاب الضرير، بصوتٍ دافئ حزين:

- الذي أفقدني بصري، هم مجموعة من المجرمين الطائفيين، كنتُ أسوق سيارتي في الشارع السريع، قرب منطقة الدورة، أوقفوني في ليلة مجنونة، ثم أنزلوني من السيارة، ضربوني بشدة. فقدتُ على إثرها بصري وسرقوا سيارتي، لكن أيماني بالله لم ينقطع، إنه أكرمني بهذا البلاء.

صاح الرجل زوج رنا:

- الله اكرمك بفقدان البصر؟

تكلمت زوجته رنا، معه هامسة، سمعها الجميع.

- على كيفك مع الرجل.. على كيفك، ما تشوفه بيا حال..

أرادت أحلام أن تغيّر مسار الحديث:

- دعونا نفكر، بهذه البلوى (وأشارت الى المطبخ حيث الفتاتين).

لم يهتم أحد لقولها.

لدى الضرير عادة، تمقتها زوجته صفاء، بعد تناول إي وجبة طعام، لابد أن يتبّول، عنده مشكلة بالبروستات، لم يعالجها في العراق.

خاطبت هليل:

- هل يمكنك أن ترافقنا الى العراء، حتى يقضي حاجته؟ (غمزته مع إشارة بإصبعها الى زوجها).

هّز هليل رأسه بالموافقة، ندت ضحكة ساخرة من أحلام، تريد هي أيضا إي حجة للخروج من الكوخ، قالت بعد ضحكتها مباشرة:
- أنا أيضا أريد مرافقتكم لقضاء حاجتي.
لم تغب أشارة أحلام، عن فطنة رنا زوجة أخيها.
استنكرت صفاء، قول أحلام "قضاء حاجتي" فمن المعيب، حسب العرف النسائي، أن تظهر المرأة رغبتها بالتبول، أمام الرجال، كما عابت عليها زوجة أخيها قولها ذاك.
خرج الثلاثة من الكوخ، تُمسك صفاء زوجها من يده، بينما سار هليل وأحلام قبلهما، تعشق أحلام اجواء المطر، فرصة سعيدة بالنسبة لها أن تستمع الى صوت هليل، بعيداً عن مراقبة زوجة أخيها، تعتقد أنّ الظلام يوفر لها مثل هذه الفرصة. تريد أن تعاود سحرية الملامسات التي أشتعلت بها روحها قبل العشاء.
في البدء، عندما أطلّت برأسها من باب الكوخ، نزلت قطرات المطر فوق شعرها الحني، رجعت خطوة الى الوراء، ضاحكة:
- أنا سريعة العطب عندما تأتي نزلة البرد.
لمّا رأت هليل، يسير بمحاذاة المرأة زوجة الضرير، تناست نزلة البرد، غذّت السير خلفهم، برغم الظلام والمطر وبرودة الطقس، تشعر برغبةٍ عارمةٍ في المشي بهذه الإجواء الحالمة.
صارت تمشي بجانبه، أستطاعت بجرأةٍ، هي نفسها لم تتوقعها، أن تُمسك أصابعه، يثير المطر فيها رغبات شتى.
طوال فترة زواجها من المرحوم الذي قتل في احدى مناطق بغداد، لأسباب ظلّت خافية عليها، منذ خمس سنوات، لم تشعر بالحياة الزوجية المستقرة، ذلك لأن زوجها كان أحمقاً محب لوالدته كالاطفال، لا يعصي لها أمراً.

في يومٍ، عندما قالت لزوجها "علينا أن نستّقل بحياتنا"، سمعت أم زوجها، أنهارت بعد ذلك، كل أسباب السعادة المؤقتة التي كانت تعيشها مع زوجها.
كانت تسكن في غرفة تقع فوق المطبخ، تتحول صيفاً الى فرنٍ، وفي الشتاء تتّجمد أطرافها، بات زوجها لا يقترب منها في الفراش. "حسب أوامر عليا من الوالدة كما يبدو".
يدفعها الشوق، في ليالٍ، لمداعبته واحتضانه، غير أن زوجها كان مشغول البال، بعيداً عنها في عالمٍ آخر، لم تعرف أسباب أنشغاله، ألا في السنة الآخيرة قبل مقتله.
علمت أنه مرتبط بامرأة كانت حبيبته في السابق، رفض أهلها تزويجها له، لأنه يعمل سائق سيارة أجرة، ليس عنده شهادة ووظيفة في الحكومة.
تزوجته أحلام ولم تر وجهه قبل الخطوبة، وهو لم يرها، بالرغم من أنها جميلة، لديها شامة كالقمر على خدها الإيسر.
تشعر الآن بنقص الحنان، تمشي بصحبة رجلٍ، تعتقد أنه كامل الاوصاف، يدوّخها صوته الواثق، لا تستطيع أنّ تُمسك زمام نفسها.
بقيت تداعب أصابعه، تتمنى في هذه الساعة، أن يطرحها على الأرض الرطبة تحت المطر ليضاجعها، وهو بالمقابل يداعبها بشغفٍ ولوعةٍ أيضاً.
الظلام ستر غامض لإقعال البشر السرية، قضى الرجل حاجته، وزوجته بقربه، كانت صفاء تتأسى، حين تلتفت، بين حين وآخر، إليهما، بالرغم من إنها لا تتمكن من رؤية مطحنة الأصابع المتلامسة.
عادوا، يسير هليل وأحلام خلف الضرير وزوجته، يمسكان أصابع بعضهما البعض، بينما مصباح القداحة بيّد صفاء.

وصلوا الى الكوخ، فوجئوا بوجود رجلٍ أسمرٍ توقعوا انه آسيوي يحمّل الساطور يقف في منتصفه.

6

قال لهم الآسيوي حامل الساطور، باللغة الإنكليزية، قامت بالترجمة صفاء زوجة الضرير، لإنها مدرسّة لغة إنكليزية في بغداد:
- أن هذا الكوخ ملك (المعلم) رئيسنا، سيأتي بعد قليل لينام فيه، وأضاف: وهو ينظر الى وجوه النساء الثلاث:
- أن المعلم أنسان حاد المزاج، لن يتردد بقتل إي واحدٍ إذا تعدى على خصوصياته.
دّب الرعب في نفوس كل الموجودين، ألا هليل الذي سخر منه بهزّ يده، قائلاً له:
- أنت قدمتَ من بلدكِ مهاجراً مثلنا، ماذا ستفعل في هذا الظلام والأمطار، لديك ثلاث نساء؟
أجاب الآسيوي ببرود:
- هذه ليست مشكلتي، هذه مشكلتكم!
توسلت به زوجة الضرير، بعد أن نهضت، وأقتربت منه، حتى لامس صدرها صدره.
- أرجوك، جدّ لنا حلاً مناسباً بعيداً عن المشاكل.
أرتعد الآسيوي من عطرها، كاد يصيبه الدوّار، ويطيح به ملامسة الصدر.
توتر الآسيوي بشدّة، منذ أن غادر بلاده أفغانستان، لم يقترب من إي امرأة في حياته. بلع ريقه مرات عديدة، نظر الى عينيّ صفاء مرة، والى صدرها المتدفق، بارتعاش مرة آخرى.

لاحظت صفاء أن عصباً فوق حاجبه الأيمن أحمّر، وازرّق، ثمّ أخضّر، توقعت، أن عصبه سيغيّر مكانه من جراء الجهد الذي يبذله، مهمة صعبة يواجهها هذا العصب.

نظر الآسيوي الى بقية الجالسين، جحضت عيناه، لا أحد يراقب انفعالاته مثل صفاء، أمعنت في تلامسه، بإصابعها الرقيقة، بعيداً عن الأنظار.

أحسّت أنه يرّتعد من الداخل، أعصابه تريد أن تنفجر، في هذه اللحظة العاصفة من التوتر وأرتعاش جسده. كانوا ينتظرون إجابته، قال لهم، وهو يحاول أيقاف إرتجاف شفتيه وسيل لعابه، واضعاً يديه على وسطه، بعد أن وضع الساطور خلف ظهره:

- لديّ حل واحد، يحتاج منكم بعض التعب وتحمّل مشاقه.

صاح الجميع:

- ما هو الحل، يمعود؟

- هناك بيت مهجور على السفح، قريباً من البحر، المسافة اليه نحو كيلومتر مشياً، فارغاً، عليكم اللجوء إليه، هناك أشجار خوخ وبرتقال مثمرة بالقرب منكم، يمكنكم قطفها وغسلها وتناولها كطعام.

قالت صفاء، بصوتٍ رخيمٍ هامسٍ وقد مسكت ذراعه العارية بحنان بالغ، ثم داعبته بإصابعها:

- سترافقنا، لإننا لن نستطيع العثور عليه، وحدنا، السماء تمطر كما ترى، سنكّرمك حتماً.

التفتت الى الجميع.

قالوا لها: موافقون.

أرادوا أن يخبروه عن الفتاتين، لكنّهم صمتوا، تبادوا الإشارات بينهم، حتى لا يحرجوا أنفسهم بوجودهما معهم في البيت مزمع الذهاب إليه:

أبتسم الآسيوي:
- هيا إذن، أرزموا حقائبكم بسرعةٍ، قبل أن يأتي المعلم وقد يرى هذه الفوضى.
بدأوا برزم الحقائب، صارت النساء مثل خليّة نحل في تنظيف الكوخ، لمّ بقايا الطعام، ترتيب الأواني والدلاء بوضعها في أماكنها.
بعد دقائق معدودة أصبحوا جاهزين للأنطلاق.
يحمل الآسيوي مصباحاً كبيراً، سار في المقدمة، وضعت صفاء يدها على كتفه، زوجها وضع يّده على كتفها، وضع هليل يّده على كتف الضرير، أحلام وضعت يدها على كتف هلبل، أمسكت رنا بثوب أحلام الأسود المبلل، آخر القافلة زوج رنا الذي وضع يده على كتف زوجته.
ساروا في الظلام والأوحال، يحملون حقائبهم على ظهورهم مثل الرتل، أزعجتهم سرعة مشي الآسيوي، وسط أكوام الطين، طلب منه هليل، أن يخفّف من سرعته، بسبب الإحمال على ظهورهم، ولعدم قدرة النساء على تحمل السير في وحل الغابة المظلمة والمطر.
برّر لهم سرعة مشيه الى كثافة نزول المطر.
أصبح الجميع يمشون مثل الرجل الضرير لا يرون شيئاً، سوى ضوءً شحيحاً، في مقدمة القافلة البشرية، يسمعون صوت الضرير، يردد بقراءة سورة الأخلاص، أعادها مرات.
في منتصف الطريق، بعد ساعةٍ من المشي، دّب التعب في أجسادهم.
أحلام بصوتٍ عالٍ:
- أرجوكم، نتوقف قليلاً، غرقنا المطر، أتعبتنا الأوحال، دخل الطين بين أحذيتنا. نتوقف تحت هذه الشجرة العملاقة.
أيّد الجميع طلب أحلام، توقف الرتل ليستردوا أنفاسهم.

بينما هم واقفون، وقد خف المطر، سمعوا عواءً من بعيد، يلحقه آخر أكثر قرباً من الأول، أرتجفت قلوب النساء.
خاطبهم هليل:
- لا تخافوا، هذا أبن آوى، يتغزل في الظلام بإنثاه يطلبها للاجتماع.
ردت أحلام القريبة منه:
- هذا غزل مخيف.
ضحكوا بتوترٍ، بعد خمسة دقائق أنطلقوا، وضعوا أياديهم على أكتاف بعضهم البعض، ساروا وسط الطين والسواقي الصغيرة التي أحدثها المطر.
همست أحلام بإذن هليل:
- كيف عرفت أن ابن آوى يريد الإجتماع بإنثاه؟ ماذا سيفعل حين يجتمع بها؟
ثم ندت منها ضحكة صغيرة، لم يعرف بم يجيبها، لأن الكلمة التي يريد قولها مخجلة.
همس بإذنها متجاوزاً الخجل:
- حتى ينكحها.
أطلقت أحلام ضحكة موسيقية، سمعها الجميع، لم يعرفوا سبباً لضحكتها، عرفت رنا زوجة أخيها، ما يجري بينها وبين هليل من ممازحات.
مضت نصف ساعة آخرى، حتى وصلوا الى مرتفعٍ، صعدوه بصعوبة، توقفوا أمام مبنى مهجور مظلم من الداخل.
أشار الآسيوي بيده:
- هذا هو البيت.
دخل قبلهم، لحقوه، بيّده المصباح الكاشف.

- هذه الصالة، زجاج نوافذها مكسور، والباب مخلوع، هناك أربع غرف، نوافذها بلا زجاج.
جلسوا في الصالة، يقف الآسيوي في منتصفها:
-هناك قنينة فيها نفط، سأشعلها لكم، ثم أرحل.
دخل الى احدى الغرف، جلب قنينة مضاءة، مثلما كنا نفعل أيام الحصار، يوضع التمر على فوهة القنينة، يخرج منها فتيلة لسانها مشتعل.
بقي الآسيوي ينظر الى صفاء المترجمة بتركيز، كأنه يريد أن يقول لها شيئاً، لم تفهم صفاء سبب نظرته، ولاحظت أن العصب الأخرق الذي كاد يغيّر مكانه، بسبب الجهد الذي بذله فوق حاجبه الأيمن قد اختفى، أحرجتها نظرته، شعرت بالضيق، "ماذا يريد مني؟ هل صدق مداعبتي له بإصابعي لوسطه؟ كنت أمزح يمعود، بس لا أخذها جديات، نزول عليّ".
تنبه هليل الى إنهم وعدوه بمكرمةٍ، أستّل من جيبه خمسة يورو، منحها له، ظهرت فرحته.
غادر الآسيوي المبنى، تنفّس الجميع الصعداء، آخيراً وجدوا مكاناً يبيتون فيه، حتى لو كان على أرضية متآكلة الحجر.

7

جلسوا جماعة هليل مدة نصف ساعة، بعد مغادرة الفتى الآسيوي، في صالة البيت المهجور بحالةٍ ذهول، ينظرون الى بعضهم البعض بفرحٍ وغبطةٍ، لا يعرفون ماذا يفعلوا، كسر هليل صمتهم بالقول:

- ماذا جرى لكم؟ هل تعبتم حقاً من المسافة البسيطة التي مشيناها الى هذا البيت المهجور "الجميل"؟ (غمز الى أحلام).

ردّت أحلام ساخرة، ضاحكة:

- أيضاً، البيت "الجميل" مثل كوخنا "الجميل"!

ضحكوا، ظهر على أصواتهم الإرهاق، وجه الضرير جامد على حركة واحدة، كأنه ينظر في ظلامه السرمدي، بإتجاه نقطةٍ محددةٍ في سقف البيت.

بجانبه زوجته صفاء التي مُزِقَ ثوبها البنفسجي الطويل وتلطخ بالوحل، لاحظ هليل أن ثوب صفاء ممزق من الإسفل الى الإعلى، ظهر فخذها الأيمن بارزاً لاصفاً مبروماً، لم تعمل على تغطيته، كما يجب ان تفعل النساء، في مثل هذه الحالات، جمال فحذها كأن الذي قام بصقله بهذا الشكل، فنان عظيم صنعه بهذه الروعة، ووضعه في متحف الدنيا، ليجمّل به الحياة.

مازال صدى الضحكات المبتورة، المُتعبَة، يتردّد في أرجاء البيت.

أكمل هليل:

- يمعودين لدينا عمل كثير، لترتيب هذا المأوى، الذي لا يمكننا الحصول عليه، حتى في الحلم، لنقرر أين ننام وكيف ننام؟ لنبحث في زوايا البيت عن أفرشه نلقي عليها أجسادنا المنهكة، نبحث عن بطانيات نتدثر بها،

سيكون الباب الرئيسي المخلوع، عرضة لهبوب الرياح الباردة، زجاج النوافذ مكسور، لا ينفعنا أشعال النار وسط الصالة للتدفئة، دخانها سيجعلنا نذرف الدموع.
أيده زوج رنا بالقول:
- أنا أتفق معك أخي، لنبحث عن الافرشة، لا يمكن أن ننام في هذا البرد من دون أغطية؟
خاطبهم هليل:
- إذا سمحتم، سآخذ المشعل، حتى نبحث عن حاجياتنا التي ذكرناها.
أمسك بالمشعل، سار في الرواق المظلم، يتبعه زوج رنا.
بقيت النساء الثلاث مع الضرير في الصالة، دخلا وخرجا من الغرفتين القريبتين للحمام، دبّ اليأس في الرجل البليد الذي يرافقه، عبر عن يأسهِ بالقول:
- لن نعثر على بغيتنا.
سأله هليل:
- ما أسمك أخي؟
- عماد.
رد هليل:
- عزيزي عماد، لا تيأس، لا تنقل عدوى يأسك الى الآخرين، مازال لدينا السطح، لابد من وجود مخزن تلقى به أشياء فائضة عن الحاجة.
تقدم هليل، يحمل المشعّل، يتبعه عماد، صعدا درجات السلم، لما وصلا الى الباحة العليا، عثرا على غرفةٍ إلى يمين السلم، دخلاها.
وقفا بحالة من العجب، إذ وجدا كل ما يحتاجون إليه، أفرشة منضودة بعناية، بطانيات، وسائد، سجاد مطوٍ ملقى في زاوية من الغرفة.
ألتفت هليل الى عماد:

- ماذا قلت لك، لا يأس مع الأمل..
هبطا بسرعة، يغمرهما الفرح، وصلا الى الصالة، وقف هليل في منتصفها، قبل أن ينطق بكلمة واحدة، أول شيء وقع بصره عليه، هو الفخذ المبروم لزوجة الضرير:
- عثرنا على كل ما نريد، أفرشة تزيد عن حاجتنا من الإسفنج، بطانيات وسجاد.
قال ذلك بطريقة مؤثرة، كأنه يؤدي دوراً في مسرحية.
لاحظت أحلام، أن عيني هليل، بقيتا تنظران طويلاً الى جهة الثوب البنفسجي الممزق، أحتقنت بالغيرة والغضب.
قالت أحلام معبرة عن سعادةٍ زائفةٍ، لتثير إهتمام هليل الى جهة جلوسها:
- ألم تخبرنا بإنه "جميل"، أكتمل جماله بالإفرشة والبطانيات، بس لا البطانيات ممزقة هههه؟
لا يغيب قولها عن فطنة هليل، وهي تركّز نظرها الى ثوب صفاء الممزق.
هزّ عماد رأسه مؤيداً قول أخته الارملة:
- هيا عزيزتي أحلام، وأنت يا رنا لتصعدا حالاً، حتى تجلبا ثلاثة أفرشة لننام عليها في هذه الغرفة.
أشار الى غرفة قريبة من الصالة.
عارضه هليل بإسلوبه المؤدب:
- لحظة آخ عماد، هناك مسألة آخرى، يجب معالجتها قبل صعود النساء لجلب الافرشة.
توقف هليل قليلا، ليتسرّد أنفاسه، نظر الى أحلام الغاضبة، شرار عينيها أكثر إتقاداً من لهيب المشعل الذي يحمله، وقد عاد ينظر الى الجهة التي تجلس عندها صفاء زوجة الضرير:

- علينا بعد الفقرة الاولى، أن نبحث في الفقرة الثانية!
تذمرت أحلام من مماطلته، واداء دوره المسرحي الذي غلب عليه الإرتجال، بقي نظره الى جهة صفاء، ذات الفخذ المكشوف.
قالت أحلام جملة تمازحه فيها:
- غير يفضّها الكابتن، ويقول لنا ماهي الدرة التي يخبئها تحت لسانه.
لم يضحك أحدُ على تعليقها الذي آثار غضب أخيها عماد، ونفور صفاء، التي تراقبها، بل أن صفاء فرحت من الصفعة التي وجهها الجميع لها، بعدم الإستجابة لسخريتها اللاذعة، للرجل الذي ما فتئ يفكر نيابة عنهم.
قالت صفاء في نفسها "هذا الرجل يعادل كل الرجال الموجودين في المجموعة " نظرت بإنكسار الى زوجها الساكن الذي يحدّق الى السقف في ظلمتهِ الأبديّة.
صرح هليل:
- الفقرة الثانية، هي البحث عن المياه في أنابيب البيت.
ردّ الضرير:
- نعم أخي، كدّت أقول قولك، سبقتني، "وخلقنا من الماء كل شيء حي".
ضحكت أحلام، لم تنسجم ضحكتها مع الاجواء الملبّدة بالجدية، فكّر الجميع مع إنفسهم، "نعم الماء، هو كل شيء في الوجود".
تمتم الضرير:
- بغياب الماء يصبحُ البيت، عبارة عن خرابةٍ مهجورةٍ.
بادر عماد بالذهاب الى المغسلة، بجانب الغرفة التي أختارها، فتح الصنبور، أنبجس الماء، صاح فرحاً مخاطبا هليل:
- فُرِجتْ، الماء موجود.
رد عليه هليل مشاركاً فرحه:
- الحمد الله.

هليل، آمراً بحزمٍ:
- لنوزع الغرف عليّنا، قبل صعود النساء الى السطح، أنا سأنام في الغرفة العلوية، وأنتما صفاء وزوجها في الغرفة الآخرى، قبالة غرفة عماد وزوجته وأخته.. ما رأيكم بهذا التوزيع؟
قالوا:
- أنه توزيع عادل، أحسنت.
ركضن النساء الثلاث الى السطح، عند منتصف السلم، توقفن، ضحك هليل لخفّة النساء، وقلّة صبرهن، عَلِمَ بعودتّهن جميعاً، لإنهن صعدّن بدون المشعل.
سلّم المشعل الى صفاء، وهو يحاول ألا ينظر الى فخذها المكشوف، أثارت هذه الحركة، قلب أحلام المكتوي بالنيران، كادت تبكي من الإهمال المتزايد. جلبّن الأفرشة أولا. وُضعت في الغرفتين، ثم صعدّن ثانية، جلبن البطانيات، وزعت أيضا على الغرفتين، فرشت في غرفة عماد ثلاثة أفرشة وثلاث بطانيات، في الغرفة المقابلة للضرير وزوجته فرش فراشان وبطانيتان.
لما صعد هليل يتفقّد غرفته، وجد فراشه مفروشاً بعناية، عليه وسادة، وعند القدمين، وضعت بطانية، قبل أن ينزل الى الصالة، لمح وردة حمراء، وضعت على الوسادة، لمّا نزل، سأل هليل مغتبطاً:
- من الذي فرش فراشي بهذا الشكل الجميل؟
قالت صفاء وأحلام في آن معاً:
- أنا.

8

دبّ الإرتباك والخجل في المرأتين، أحلام وصفاء. وضحّت اللبقة أحلام بانفعالٍ، لا يُخفى عن زوجة أخيها رنا:
- أقصد، أنا فرشتُ الفراش، وهي التي وضعت البطانية والوسادة.
لأول مرة تشعر صفاء، بالراحة المؤقتة، من تصرف أحلام، هذه الأرملة التي أخذت تعاديها، كلما مرّ الوقت، من دون سببٍ.
تعلم صفاء، أن أحلام تغار منها، بسبب جمالها الذي يثير شهيّة الرجال، لكنّها لم تتوقع، أن يصل بها الأمر، أن تعبّر عن غيضها منها بشكلٍ فاضحٍ.
شرحت صفاء:
- نعم، هي فرشت الفراش، وأنا وضعت الوسادة (أبرقت بنظرةٍ الى هليل، أشارة الى الوردة) ثم وضعتُ البطانية.
أبتسم هليل، لم يسألهما عن الوردة الحمراء، اكتفى بنظرة صفاء، فقال:
- الآن جاء دور النوم، غداً لدينا عمل كثير، يجب أن نريّح أعصابنا وأجسادنا من الإرهاق، في يومِنا الطويل هذا.
مسكت صفاء زوجها من يده، قادته الى الغرفة المخصصة لهما، تقدّم عماد زوجته وأخته، سارا بإتجاه غرفتهم، قبل دخولهم، تراجعت أحلام خطوة الى الوراء، راقبت هليل يصعّد السلم حيث ينام وحده.
لم يفت تراجع أحلام خطوة الى الوراء، عن فطنةِ رنا، تعلّمُ بهواجس حماتها، وتعلّقها بهليل، حتى إنها، كادت تسحبُها من يدها، لولا خشيتها من زوجها، أن يكتشف خفّة أخته مع الرجل الغريب.

اكتفت رنا تبحلق بها، أدركت أحلام، معرفة زوجة أخيها بدواخلِها، وبالرّغم من أن صفاء زوجة الرجل الضرير، اغتبطت مؤقتاً من أحلام، ألا أن عينيها بقيتا تحدّقان، الى باب غرفة عماد وزوجته وأخته، تراقب ردود أفعال أحلام المقبلة، لمحتها تنظر الى الإعلى في اللحظات التي دخلت غرفتهم.

نامت صفاء بجانب زوجها الضرير، غير إنها بقيت تنظرُ الى الباب الآخر، تعلم أن أحلام سوف ترتكب المحرمات، قد تكشّف لها جنونها، حيث تسرح في الليل قطعان الشهوة، أعطت ظهرها لزوجها، الذي أستغرق في النوم حالاً.

ظلّت صفاء تراقب غرفة الثلاثة، عبر نور المشعل المنتصب كمنارة، تهتدي به الأرواح الهائمة، وضع في وسط الصالة، من أجل الإهتداء الى الحمام لقضاء الحاجات الليلية.

ما أن مرت ساعة، حتى رأت صفاء، شبحاً يتسلل بخفيةٍ، من غرفة الثلاثة، وقف الشبح، عند عتبة الباب، يراقب غرفة صفاء، وهذه أوهمت أحلام، أنها مستغرقة بالنوم، لكن عينيها شبه مغمضتيّن، تراقبانها وهي تقف عند الباب.

تسارعت ضربات قلب أحلام، تريد أن تخوض مغامرتها، تعتقد أنها أصبحت مؤاتية جداً بعد تأكدها من نوم صفاء وخلفها رنا نائمة.

تسللت بهدوءٍ من عتبة الغرفة.

بدأت تصعّد السلالم حافية القدمين، حذرةً، قلقةً، متوترةً، تتلفت الى الخلف، خشية من ملاحقة إحدى المرأتين لها.

لما وصلت الى الإعلى، تفاقم وجيب قلبها، بشكل جنوني، أرتّخت عضلات ساقيها، سال لعابها بكثرة، خشيت أن تتعثر عند عتبة الباب،

لشدة أرتجاف قدميها، وبسبب ما تفيض نفسها بالمشاعر الجنونية، وإرتباك وخوف ورغبة مسحوقة.
الغرفة مفتوحة، غارقة في الظلام، دخلتها حابسة أنفاسها، لا ترى إي شيء، تتحسّس يداها المكان، بلغ التوتر في جسدها أقصاه، خمس سنوات فاقدة للحنان، جسدها مشتعل بالشوق، نبعها في حالة سيلان، ما عادت تطيق صبراً للإنتظار، تشوّقت حواسها الى شّم رائحة رجل، في أعماق ذهنها، لا تجد ما تقوم به إثماً، ترتعشُ قدماها ويداها، بلغت من العطش منتهاه، ومن الرغبة أقصاها.
خمس سنوات من نقص الحنان والفقد، بكت فيها زمناً طويلاً، صارع جسدها وسادتها وفراشها كثيراً، كانت ترى، في صباح كل يومٍ يمّر، آثار بلل لدموعها على الوسائد والشراشف.
حياة قاسية أن تعيشها المرأة، أي امرأة، بعد فقدان الزوج، كثيراً ما أتجهت الى الله، تسأله إخماد الحروب، التي تأكل الرجال، لماذا يغيّبون عن الإسرة الجميلة، الدافئة المُعّدة من قبل نسائهم؟
مازال الإرتعاش يخّض قدميها وفخذيها، منذ زمن بعيد، دّب اليباس والتصحّر في جسدها المتحرق شوقاً الى لمساتٍ ناعمةٍ، تأخذها من جحيم الواقع المرير، من الإشواك التي تنغرز في لحمها، لتحلق بها الى سماوات لينة شفافة.
حلمت كثيراً باللمسات، تكاد تطفر الدموع من عينيها، لإنها غير قادرةٍ على مسك زمام نفسها، بعد أن بللت الرغبة العاصفة، كل منابع العذوبة بين فخذيها ووركيها.
لعنت الحروب، والسلطات، والكراسي التي يتصارعون بسببها، ليفّقد الرجال حياتهم، تندثر أجسامهم الجميلة، الخشنة، تحت التراب.

خُلقت النساء لكي ينعمّن بالحياة، وينّعمُ الرجال بالخصب والملوحة الرطبة في أجسادهن. شعرت بتعاسة الحياة، بسبب غياب الرجل عن حياتها، تحولت الى نواحٍ صامت لا يتوقف.

مازالت تسير أحلام في غرفة هليل المظلمة، تحوم حول جسده، مثل نحلةٍ تريد أن تستطعم الأزهار، حتى ترتشف رحيقها، لتحوله الى عسلٍ في مناحل الأسرّة الناعمة، أسرّة النساء العذبة.

يصرخ جسدها كل يوم بسبب الغياب، تدور أحلام الآن حوله، تريد أن ترتمي بحقل الأزهار، تحضنه، تشمّه، تريد أن تتحسّس كل خشونة الجسد النائم، تتحسّس كل شعيراته المتوثبة، تريد أن تنتشي، وتجعل مسرات جسدها تصطفق مثل ردفيها حين تلتهب روحها بنيران الشوق.

ستكون أحضان هذا الرجل دافئة، مثل حضن زوجها، الذي كان يصطخب ويعربد، عندما تقف أمامه عارية، يأخذها إليه، يقبّل جسدها من قدميها حتى رقبتها الطويلة، يبللها برشقات لعابه، لا يرتاح ألا إذا وضع ذراعه تحت رأسها، يشمّ رائحة العنبر من جيدها، بعد ممارسة حب عاصفة.

كانت تمطر زوجها بعسلها، تصل أمطارها أحيانا، خمس مطرات أو أكثر، في أوضاع شتى.

لا تنسى إنها ذات يوم، بقيا منذ العاشرة ليلاً الى الصباح، يرقصان رقصة الحياة الرشيقة، على السرير الدافئ الجميل.

هاهي الآن قد وصلت الى مبتغاها، لا تعلم كيف تتسلل الى بطانيته، أتخلع ثوبها الشفاف، ثم تطفو فوقه عارية، كما كانت تفعل حين ترى زوجها غارقاً في النوم، بعد عمل يومٍ مضنٍ؟ تتسلل إليه وهو راقد على السرير، تداعب رجولته، تداعب شعيرات صدره، حتى تنهضه من رقاده.

فلمّا يراها، مستعدة للحنان، يطرد النوم بسرعةٍ، يلقي ثيابه، مثل مجنون فقد صوابه، في إنحاء الغرفة، يبدأ معها في عصر ليونتها المستسلمة، ثم يلهث فوقها كالثور الهائج.

لا تعلم أحلام الآن، أين يمكن أن يكون منام هليل، في هذا الظلام؟ أين يقع رأسه من قدميه؟ تقدّمت منه، مرتعشة، مضطربة، متوترة، وصلت الى أقصى مراحل الجنون والشبق، ضربته بقدمها الحافية من قدميه، فزّ هليل مرعوباً، قبل أن ينطق إي كلمة، كاد يقطر لعابها، على وجهه، همست له:

- أشش لا تتكلم، أنا أحلام.

أرادت أن تدس جسدها تحت البطانية بجانبه، أوقفها هليل، أمسكها من ذراعها، ضاغطاً عليه بقوة وحنان، متجهاً بها الى الباب:

- لا يصحُ يا أبنة الناس!

في تلك الإثناء، كانت صفاء تقف عند باب غرفة هليل، واضعة يدها تحت حنكها، تضحك من جنونها.

9

نزلت أحلام سلالم البيت المهجور بخطواتٍ بطيئةٍ، غير مصدقةٍ، ما جرى لها، خلفها تنزل صفاء، بنفس الإيقاع البطيء، تضحك بخفوتٍ، تشفياً من فشل محاولتها الإنفراد بهليل.

أزعجت تلك الضحكات أحلام كثيراً، جنّنتها، التفتت إليها غاضبةً، همّت بصفعها، لكنها قالت، وهي تضغط على مخارج الحروف:

- من الذي أيقظك لتتجسسي عليّ بنص الليل؟

مسكتها صفاء من كتفيها برقةٍ، قبل أن تنزل الدرجة الأخيرة، ساخرةً:

- السبب نفسه عزيزتي، الذي أيّقظك بنص الليل.

أحلام متذمرة:

-أنت سيدة متزوجة محترمة، لديك رجل يمكنك أن تنعمي باحضانه، أين ذهب عقلك؟ أنا كنتُ أريد التفاهم مع الرجل لإمضاء الوقت في الحديث عن مصيرنا، بعد أن أصابني الأرق، ليس لدي ما في عقلك من أفكار شيطانية؟

ضحكت صفاء:

- أنا مثلكِ، أصابني الأرق، صعدتُ لأتحدث معه، أنسان مثقف، أريد معرفة مصيرنا أيضاً، ماذا يخطّط؟ بماذا يفكر؟ صحيح أنا سيدة متزوجة، ومحترمة رغم آنفك، لكن زوجي خارج الخدمة، مسكين يحتاج الى رعايةٍ طبيةٍ، عاطل عن الحياة، بسبب الإجرام الذي أرتكبوه جماعاتكم بوحشيةٍ، فوجدتكِ في الغرفة، قلت يجب ألا أفسد عليها راحتها، وقفت عند الباب، حتى لحظة قولك "اششش أنا أحلام هليل".

التفتت إليها أحلام، يتطاير الشرر من عينيها، ردّت بعصبية:

- أنا بلا رجل بسبب أجرام جماعاتكم، قتلوا زوجي، رموه في الشارع رمية الكلاب.
- أنا أيضا مثلك بلا رجلٍ عزيزتي، هذا الذي معي، عبارة عن كومة من اللحم، لا نفع فيه ولا فائدة، جماعاتكم قتلوا رجولته واحتجزوا حياتنا في مقبرة الأحياء، قبل أن يعاق، كنا نحيا حياة عذبة.
يراقب هليل من الإعلى المرأتين، تتجادلان عند السلم، خشي أن تؤدي الحدة بينهما، الى إفتضاح أمرهما، وقد يُسمعوا أصواتهن.
نزل سريعاً، قبل أن تصلا الى آخر درجةٍ، همس غاضباً:
- يفضّل أن تذّهبا الى فراشيكما. في الصباح، ستحّل كل المشاكل، إن شاء الله.
صعد الى غرفته، وهو يتلّفت إليهما.
أنزوت المرأتان، كل واحدةٍ الى غرفتها، دخلت أحلام أولاً، فوجدت زوجة أخيها مستيّقظة، رأت عينيها تلصفان، تبحلق بها.
بعد أن وضعت أحلام رأسها على الوسادة، همست لها رنا بغضبٍ:
- ها.. فاخت الدودة!
دفنت أحلام رأسها في طيّات الوسادة، أخذت تنشج بصمتٍ.
في الغرفة الآخرى، نامت صفاء على بطنها، تشعر بالغيظ والفرح في آن معاً، فرحت لأنها نجحت في إفشال خطط غريمتها، أغتاظت لأنها تذكّرت تلك الأيام السود التي توقفت فيها الحياة في جسد زوجها.
في الصباح، أستيقظ الجميع، وجدوا هليل، أعّد لهم مائدة فطور باذخة من الفاكهة الطازجة، أقتطعها من الأشجار القريبة للمنزل، غسلها، أعّد لهم الشاي، عثر على السكّر في المطبخٍ، نظرت إليه أحلام بغضبٍ، تمنّت لو أنها نشبت أظفارها في رقبته، تنظر إليه صفاء بارتياحٍ بالغٍ.

تراقب رنا تصرفات أحلام، لاحظتها، قلقة، منزعجة، ربما بسبب عدم تمكنها من النوم جيداً، على العكس من صفاء، تورّد خداها، ظهرت تبّتسم منشرحة، مقبلة على الحياة، تتمغّط، تدندّن بإغنية فيروز "شايف البحر.. شو كبير".

يبدو على زوج صفاء الضرير، أنه نام بإرتياحٍ أيضاً، فقد كان يحك ظهره ورقبته، يطلق تثاؤباً بصوتٍ أزعج أحلام.

لا تعلم صفاء أن زوجها، بات لا يبالي بتصرفاتها، لم يهتدِ الى أسباب تذمرها وعدم الإهتمام به، طوال مدة الرحلة من البلاد الى حد هذه الساعة، بالرغم من إنه ترك خلفه كلّ شيءٍ من أجلها، على أمل أن يتم لمّ شملهُما بولدهِما الوحيد، المُقيم في برلين.

لولا هذا الولد، ما غامر بترك أهله وبلاده، أستطاعت زوجته، بإساليبها اللذيذة، أقناعه بهذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر، تقوده من يده الى المرحاض، والى كل مكانٍ، شاعراً بالضغط النفسي التي تعاني منه، لذلك أطلق لها حرية التصرف.

ولم يجعلها تعاني الوحدة، عندما كانا في البيت ببغداد، فقد كان يمّطرها بحنان أصابعه، ودفئ يديه وقبلاته، على العكس من حالتهما الآن.

كان في بيته، تحت سيطرته كل شيء، يعلم الى أين تذهب؟ ومن أين أتت؟ كما أنه يعرف الطريق الى المطبخ، والى الحمام، والى الصالة، والى عتبة الباب الخارجي.

يجلس أوقاتاً طويلة، يردّ على تحيات جيرانه، الذي يفتقدهم الآن، كما يفتقد الى سماع زقزقة العصافير، وأصوات الصغار المزعجة، وهم يلعبون كرة القدم بالشارع.

يشعر بالأسى على حاله، بعد أن سُرق نور بصره، وعطلّوا جسده عن الحياة، نتيجة ذلك الضرب المبرّح الذي تلقاه على ظهره واعضاءه

الحساسة، بالدفرات ومقابض المسدسات، حتى ظنوه ميتاً، ثم سرقوا سيارته.
عادت إليه الروح، تم أنقاذه من قبل أنسانٍ نبيل، وهو مرمي على قارعة الطريق، أوصله الى المشفى بسيارته.
يتناول عماد الفطور بغير رغبة، لأنه لا يعرف الى أين تأخذه مغامرة الهروب من البلاد، في هذه الأيام الصعبة، حين قذفت به الأقدار الى العيش في غابة مع امرأتين متنافرتين.
عماد صامت، يسير على هدي أفكار زوجته وأخته، يرى صراعات ناشبة بينهما، يخشى معرفة الغرباء به، يعلم بإهواء أخته الحزينة وجنونها في عشق الرسم والموسيقى والرقص والأفلام الرومانسية والمسرحيات الفكاهية.
فقدت زوجها بالحرب الطائفية، التي أشتعلت في عام 2005 فلا يستطيع أن يردعها عن بعض تصرفاتها، ترتدي الملابس المكشوفة على الدوام، تُظهر مفاتنها، مثل ثوبها الأسود اللاصق على جسدها، أو تنورتها الزرقاء القصيرة، أو بنطلونها الجينز اللاصق على مؤخرتها.
لا يريد أن يلاحق هواجسها، ليمنعها، في هذه الإجواء البعيدة عن البلاد، فهو منذ أن صعدوا الحافلة من بغداد حتى وصولهم الى بلاد الغربة، لا يعرف أسباب تذمرها وسط هذه الغابة، التي علقوا بها من دون أن يجدوا مَخرجاً ينهي عذابَهُم.
كانوا يتطلّعون الى هليل جميعا، يفترشون أرضية الصالة، يتناولون الفطور.. خاطبهم:
- أظننا اليوم سنذهب الى مكاننا القديم، قرب تجمّع زوارق المطّاط، لنبحث عن حلٍ، ليس من المعقول أعطينا نقودنا للمهربين، لنبقى في هذه الغابة، ماذا تقولون؟

قال عماد:
- اتصلت بالمهرّب، أخبرني، خلال يومين، يجب أن نكون جاهزين، لأن دوريات خفر السواحل، مازالت تجوب البحر، أمضينا أمس واليوم نمضيه، من الإفضل أن نفكّر في العودة الى مكاننا غداً.
قال الضرير:
- أنا أتفقُ مع قول الآخ.
في تلك الإثناء، قبل أن ينتهوا من فطورهم، دخل ثلاثة رجال، يضعون أغطيةً سود على رؤوسهم، وعلى إكتافهم أسلحة، صوّب أحدهم مسدسه الى الموجودين، قال آخر بلغة أنكليزية ركيكة:
- ستغادرون البيت حالاً، هذا مكاننا، سمحنا لكم بالمبيت ليلة البارحة، ولن نسمح لكم بالبقاء فيه أكثر من عشرة دقائق، مفهوم؟
غادروا البيت مؤقتاً، وقفوا قرب دكةٍ عريضةٍ خارج المنزل. أُصيب الجميع بالذهول والرعب.

10

بعد خروج الغرباء الثلاثة من البيت وتهديدهم للمجموعة بالمغادرة خلال عشر دقائق، أهتم الجميع بردود أفعال هليل، كأنمّا يبحثون عن حلٍ من خلاله.

مرّت دقائق متأزمة، حتى أنبثقت في ذهنه فكرة، وجد أفضل من أن ينفّذها صفاء، كونها مدرسة لغة أنكليزية، تعرف كيف تتعامل مع موقفٍ كهذا، بسبب ما تمتلكُ من قوة شخصية وسلاسة.

نهض، طلب منها بالإشارة، حتى لا يسمع زوجُها، بأن تلحق به الى غرفةٍ آخرى.

أضطرمت نيران الحقد والغيرة، في قلب أحلام، لإختياره صفاء.

لم يجد هليل وقتاً مناسباً لإخبارهم ما في ذهنه، سبقته صفاء الى الغرفة، أنفرد بها، قال لها الفكرة، التي مفادها: "أن تذهب الى الغرباء، ترجوهم بابقاء مجموعتهم في غرفةٍ واحدةٍ، هذه الليلة فقط".

يحدّثها هليل، فيما تضطربُ في قلب صفاء مشاعر الافتتان والإعجاب، تنظر الى شفتيه وحركات يديه وعينيه، تصغي له بشغف وإنسجام وتوتر، كأنها تستمع الى أغنية حبيبة الى قلبها.

لم ترفض طلبه، وجدت ذلك سبباً في أن تثير أعجابه، "حتى تنتصر على أحلام، بالإنفراد به، في هذه اللحظات المتأزمة".

هزّت رأسها بعد أن بلعتْ ريقها مرّتين:

- اوكي يدلل الحلو (ضاحكة)

خرجا من الغرفة، دخلا الى الصالة، وسط ذهول الجميع، لم تمكث صفاء معهم، أتجهت فوراً الى خارج البيت، بإتجاه الغرباء الثلاثة.
وقف هليل عند النافذة المكسورة، يتابع خطواتها، طريقة مشيتها المثيرة ببنطلون الجينز، الذي يرسم وركيها، يتأرجحان بشكلٍ راقصٍ.
لا أحد سأل هليل عن الذي جرى بينه وبين صفاء، ففي قرارة أنفسهم، إنه يتصرف بذكاءٍ وحكمةٍ.
أقتربت صفاء من الغرباء، أبناء الغابة، وقفت بمواجهتهم، تتحدث إليهم، أختارت أحدهم، يبدو قائدهم، لامس صدرها العامر صدره، كما فعلت مع الآسيوي، ليلة البارحة.
بدأت تتّحدث معه، ثمة نظرات توسل ورجاء مع حركة يديّها الهادئة، ينظر إليها هليل، وهو موقن أنها تجيد الدور ببراعة.
بعد دقائق، هزّ كبيرهم رأسه، وافق على طلب صفاء، التفتت الى هليل، الذي كان بإنتظار إشارتها، رفعت له يدها، أفردت أصبعيها، السبابة والوسطى علامة النصر V، تضاحك الثلاثة معها، شكرتهم، عادت الى الصالة.
ينظر إليها الثلاثة بإعجاب، وهي تلاعب ردفيها، تسير بخطواتٍ راقصةٍ الى البيت، دخلت الى الصالة، قالت الى هليل، سمعها الجميع:
- وافقوا أن يمنحونا الغرفة في الأعلى، يعني غرفتك.
رشقت أحلام بنظرةٍ ذات معنى، أضافت:
- سيعملون على توفير الطعام مقابل أجر زهيد.
أبتسم هليل، قال للجميع:
- هيا الى العمل، لنحمل حقائبكم الى الغرفة في الإعلى ونرتب شؤوننا بهدوء.
جرى الأمر بشكل سريع، أنتقلت المجموعة للمبيت في غرفة واحدة.

مضى النهار، وسط أجواء مرح متوتر، لاسيما أحلام التي أنطلقت من روحها القلقة موجة من النكات أثارت الضحك المتواصل، ختمتها بالقول:
- زين في الليل إذا وضع زوج صفاء يده على زوجته، ولم تكن موجودة، هل سيضعها على هليل مثلا؟
أنطلقوا بالضحك.
جاء الليل، بعد تناول العشاء وشرب الشاي، بدأ الإستعداد لتوزيع الغرفة بين الإفراد الستة.
بخبرته في السكن مع مجموعات من الإصدقاء، في عمان الاردن أو النوم في مواضع جبهة الحرب الإيرانية أخبرهم هليل:
- تأخذ كل عائلة جداراً، سيكون بمثابة بيتهم، رؤوسنا الى الجدار، والأقدام الى وسط الغرفة، أنا تحت النافذة مكسورة الزجاج، وأنتم، كل عائلة الى جدار.
كانوا يستمعون إليه بإحترامٍ، بالوقت نفسه، يصل الى أسماعهم، لغط وزعيق الغرباء الثلاثة في الإسفل، فلم يأبهوا بهم، غير أن هليل جلس على فراشه، يفكّر في الأمور قد تتعارض مع وجود هؤلاء الغرباء.
مثلاً، كيف يمكن أن تقضي واحدة من النساء حاجتها الإنسانية في منتصف الليل، بوجود الحمام في الإسفل، من دون موازاتهم عليه؟ إذن يجب أن يرافق أحدهما إي امرأة في المجموعة، أما هو أو عماد، الضرير لافائدة ترجى منه، بل هو الذي يحتاج الى المساعدة، في مثل هذه المواقف.
نام الجميع على الأفرشة حسب التقسيم الذي وضعه هليل، ثمة ضحكات خافتة تطلقها أحلام ورنا، تقابلهما صفاء بالحماس نفسه مع زوجها، ينصب مزاحهم حول الإحراج في نومهم في غرفة واحدة،

مزح هليل معهم:
- أرجوا من الرجال عدم الإقدام على الوقاحة الليلية.
أخذوا يضحكون، ما أستفز مجموعة الغرباء في الأسفل.

11

يهيّمن الظلام في هذا البيت المهجور، يسود الغرفة التي ينام فيها، ثلاثة رجال وثلاث نساء، ظلام في السلم الذي يؤدي إلى الصالة، التي يجلس فيها غرباء من أبناء الغابة، ظلام خارج النوافذ، على شكل عباءة مخيفة مختزنة بالغموض والأسرار.

ينام العراقيون الستة تحت البطانيات، ألا هليل، الذي كان يستمع الى أنفاس الموجودين، يراقب الإنفعالات والبوح الدفين، تطلقه هذه المرأة أو تلك، بقلبٍ ذكي موجوع.

يخشى أن يزيد الظلام، في اسوداد قلوب الغرباء، الذين جلسوا في الصالة، يحتسون الخمرة، ويدخنون الأريكلة، يظنهم هليل، يترقبون مجموعتهم، ربما يحبسون أنفاسهم، بإنتظار نزول إي امرأة، قد تضطر الى قضاء حاجتها.

ينام هليل الى جدارٍ بقرب المرأتين والرجل، أقرب إليه من منام الضرير وزوجته، يستمع الى حديث أحلام ورنا تتبادلان الوشوشة، ينصب حديثهما إلى نقد وتجريح سلوك صفاء.

همست أحلام:

- هل رأيت كيف وقفت أمامهم، تلصق صدرها بصدر أبو لحية؟ ولا تستحي!

ردّت الآخرى:

- كلا لم تلصقه، كنت أقربُ الى رؤيتها منكِ.

ضحكت أحلام:

- كيف تتصوري أنهم اقتنعوا بسهولة في بقائنا بالبيت، لولا " النسنسة "؟

وهو يصغي إليهما، تذكر اللحظات الأولى الذي شاهد فيها صفاء، حين أفردت له أصابعها الثلاثة، بطريقة أثارت إعجابه، تذكّر جلستها بثوبها البنفسجي الممزق من الإسفل الى الأعلى، ظهر فخذّها البلوري وتصور، تلك القدرة الهائلة للفنان العظيم، الذي نحت مثل هذا الفخذ المبروم، كي تتجّمل به عيون الرجال، تذّكر ذلك العزف الموسيقي، المنبعث من إعماق الأشجار، وهي تبثُ أنغام صوتها في إذنه، حينما ذهبوا ثلاثتهم، هي وزوجها الضرير، بحثاً عن المياه، كان همسُها يبدّد صمت الغابة، الصمت نفسه، الذي يخيّم على الدنيا الآن.

مازالت رنا مستغرقةً في ضحكٍ متواصلٍ، تضعُ كفها على فمها، لتمنع تسلّل صوتها الى الغرفة، واصلت ضحكتها بسبب كلمة "النسنسة" التي قالتها أحلام.

زعق الرجل الضرير:

- يا جماعة كافي ضحك، نريد أن ننام.

صممّت المرأتان على الإستمرار بالضحك، بصوتٍ مكتوم، ولم يمنعهما تذمره.

أحلام هامسة:

- ألا يكفيه نوماً، وهو غافل عما تفعل زوجته؟

حل الصمت، بعد قليل، سألت أحلام:

- هل تتوقعي أن هليل نام الآن؟

أجابت رنا:

- هم رجعنا لهليل، أظنه غطّ في سابع نومه،

أضافت:

- أنه أنسان محترم حقا، يكفي متابعة له، فهو في عالمٍ آخر.

أطلقت أحلام آهة قوية بزفير قوي، سمعها هليل، عَلِمَ أن الأرملة، تهتّم به، سألت:
- هل تتوقعي أنه يعرف أنني
قاطعتها رنا:
- لا أعلم، لا يفكر بكِ ولا بسواكِ، أنه مجروح جرحاً عميقاً بسبب امرأة.
- أظنه كذلك.
أكدت رنا:
- أنا أعرف مثل هكذا نموذج، أنه طوال الوقت، سيكون جاداً في كل شي، حتى في الحُبّ، ربما تركته امرأة بسبب جديته.
ردت أحلام:
- إي امرأة حمقاء تلك التي ترتبط به، ثم تتركه؟
رنا منهية الحديث:
- لا نعرف دواخل الناس، نامي أرجوكِ.
لكن أحلام لم تنم، تتطلع الى فراش هليل، قدماها ممدودتان الى وسط الغرفة، قريبة جدا من قدميه، يمكنها أن تدفره بخفة، لتقول له "ها أنذا" لكن حياءها يمنعها، غضبت منه، لإنه صدّها ليلة البارحة، ببرودٍ وقلبٍ قاسٍ، كادت تبكي وقتها.
نامت رنا، غير أن قلب أحلام لم يَنم، تتقلّب على بطنها مرة، وعلى صفحتها اليسرى مرة آخرى، وعلى اليمنى ثالثة.
قفزت الى ذهنها مداعبة أصابعه الخشنة، في تلك الجولة الليلية، وهما يسيران خلف صفاء وزوجها، لقضاء حاجة الضرير، تتذكر مداعبة الأصابع، لم يخطئها قلبها قط، ألم يكن يداعبُها أم خُيّل اليها؟
كان "يداعبني من إصابعي، حتى جعلني اتبلل "، لماذا لم يستقبلها ليلة البارحة بشغفٍ؟ لماذا صّدها؟ هل توقع، حين إقبلت إليه، هناك من

يتبعها؟ صدقت ظنونه، "نعم كانت الحرباء (هكذا وصفتها) تجري خلفي، لماذا صعدت؟ أليس لديها رجل يداعب جسدها الجميل؟، عوع.. من أين لها الجمال "؟

في تلك الإثناء، نهضت من نومِها، سارت الى فراش هليل ضربت قدمها قدمه هامسة بإذنه:

- هليل، من لطفك، أستيقظ.. أريد قضاء حاجتي.

12

أستيقظ هليل مذعوراً، سمع صوت أحلام تستنجد به، تسلل قبلها خارج الغرفة المظلمة، لحقت به، أمسكت يده، ينزلان السّلم المظلّم الى الصالة، حيث سيمّكنها أن تقضي حاجتها في الحمام، همس في إذنها:

- يجب ألا تتكلمي أبدا، حتى لا يسمعوا صوتكِ، أنهم غارقون في سكرتهِم.

لاحظ، أنه أُطفئ مصباحهم، امتثلتْ أحلام الى إرشاداته، يُمسك أصابعها البيض، دبّت رائحتها العبقة في روحه، عطرّته بإنفاسها الحلوة، كأنها رائحة العنبر، شمّها بين أبطيها.

شعر بأن السلم كان طويلاً، تنتعل خفاً لا يصدر صوتاً، مثله، تتكئ على ذراعهِ، تشعر بإمانٍ مع هذا الرجل، حلِمت كثيرا أن يحضنها ويقبلها ويأخذها الى مروج طار خيالها إليها.

أما هليل فهو يشعر بإنفاسها القريبة، ترتفع به الى جبال خضراء بعيدة، تعانق روحه الحرية والجمال، لكنه لا يريد أن ينسى نفسه بمداعبة خيالاته، لأن هناك في الإسفل من يتربّص بهما، حيث ينزلان السلم، ثمة خطر يجب أن يحذّره.

هؤلاء الجالسون في الأسفل، هم أبناء الغابة، رمت الأقدار بمجموعتهم فيها، لا تردعهم أي قوانين أخلاقية عن فعل إي شيء، حتى يلجأوا إليها لتوقف شرورهم، إن قاموا بفعل مشين، إنهما الآن خارج الجغرافية والقانون، مثل الأجواء المرعبة التي عاشوها في بلادهم، خلال سنوات ما بعد سقوط النظام البربري.

ما زالا ممسكان ببعضهما البعض، مالت أحلام برأسها على كتفه، تحتضن ذراعه اليمنى بكلتا يديها، أصبح متوتراً، لا يريد أن يفقد زمام نفسه بغيوم إنفعالاته العاطفية التي داهمته، مجال الرؤية والتفكير عنده يضيق، تبثُ أحلام هواء تنفسها بإذنه، موجات من الرذاذ الموسيقي، يأتي من أقاصي السماء، تغمر روحه المتيبسة بالصحاري،
يفتقد الى رذاذها بحرارة، منذ رحلت تلك المرأة الحبيبة من حياته. ذهبت الى أحضان الزواج، بقي هو يقلّب حبه الضائع، بقلبٍ مجروحٍ، تماماً، كما قالت رنا عنه، تحت البطانية قبل قليل.

لا يدري كيف يمّكن للنساء أن تعرف أدق إنكسارات الرجال، بهذه السهولة؟ ميّزة وهبها الله في فطرتهن الذكية، يتمّتعن بها، عكس الرجال. تلك الفطرة، يدخلن بها عميقاً في أحوالهم وتقلباتهم. الآن، يريد أن يُنهي مهمته، بدون أن يتهور لمواجهة هؤلاء الغرباء، حينما يقفون في طريقه لمعاكسة المرأة، التي رمت بكل عذوبتها عليه، صارت شرفه وناموسه، فلن يتخلى عنها في هذه اللحظات، مهما كانت الصعاب.

وصلا الى الأرض، أكتشف أن أثنين من الرجال، جلسا في وسط الصالة، بعيداً عن السلم، ينشغل الثالث الأكثر صخبا بينهم، بإحتساء ما تبقى من قنينة بيرة بيده.

وجد الطريق سالكاً، للإنزواء بسرعةٍ تحت السّلم، حيث الحمام، دفع ذراع أحلام بقوةٍ الى جوفهِ المظلّم، أنتظرُ عند الباب، مرّ وقت طويل، بالرغم من أنها، لم تمضِ سوى ثوان معدودةٍ، منذ أن دخلت.

رأى أحد الرجلين، نهض من مكانه، بدأ قلبه يضطرب، حرّك يديّه الى وسطهِ لينزّل سحّاب بنطلونه، أكتشف هليل، أنه مقبلُ الى المرحاض ليقضي حاجتهِ، فالبيرة مدرة كما يعلم،

نهوض الرجل وسط زملائه، سيسّبب له إحراجاً كبيراً، هو المدافع والحارس عن المرأة، إن قَدِمَ هذا الغريب الى المكان الذي يحرسُها فيه.
فكر: "كيف يمكنني أن أهدّأ أنفعالاتي؟" كتم تنفسه للحظات، كي لا يُصدر ما يثير أنتباههم.
مرّت في ذاكرتهِ سوابقُ مثلها، حين دخلَ رجالُ الأمن الى بيتهِم، بحثاً عن والدهِ غير المنتمي للحزب، لحظاتُ قاسية عصفت باحوال أمه واخويه الصغيرين، يراقبون ثلاثة من رجال الأمن يتنقلون بين غرف البيت، بحثاً عن والدهم الذي اختفى في مخزنٍ السطح، صعد أحد رجال الأمن الى الأعلى، فرّ والده من هناك، لجأ الى سياج الجيران، عبره برشاقةٍ وخفةٍ ثم اختفى.
لا يعرف التهمة الملفقة التي أتهم بها والده، جاء على آثرها رجال الأمن للبحث عنه، كان في عمر المراهقة، ليس لديه القدرة على مواجهة رجالاً مدججين بالسلاح.
لمّا يأسوا من العثور عليه، قال أحدهم، ضابط صغير الى الآخر أعلى رتبة، لنأخذ امرأته بدلاً عنه، سيظهر تلقائياً، ألقى الضابط الأعلى رتبة نظرةً الى عيني هليل، وأخويه الصغيرين، كانت كافية لتلقي في قلبه بعض الرحمة، قررّوا مغادرة البيت بدون طريدتهم، قالوا الى أمه، قبل المغادرة، يسلم زوجك نفسه في الغد الى الفرقة الحزبية وإذا لم يفعل، سنأتي نأخذك بدلاً عنه؟
في الظلام، يحبس أنفاسه، يراقب الرجل الواقف الذي يتحدّث الى زميليه، وبدلاً من المجيء الى المراحيض، أتجه الى خارج الصالة، ألقى بحاجته في الممر الخارجي، بالقرب من الباب المفضي الى الغابة، لم يتنفّس هليل الصعداء بعد.

أحلام مازالت في الحمام، الرجل الغريب الذي خرج من الصالة عاد الى مكانه، قال لجماعته شيئاً، خرجوا يتبعونه الى حيث أشار لهم، خرجوا من الصالة، شعر هليل بأن الخطر صار أقل من ذي قبل، خفّ ضغط التوتر على أعصابه.

خرجت أحلام تتلمس بيديها مكان وقوف هليل، الذي ما أن رآها تبحث عنه، حتى أحتضنها، أرتمى جسدها البض بجسده المتخشّب، في تلك اللحظة، نسي هليل نفسه، والمهمة الموكل بها، همس لها:

- ها أنذا بقربك، لا تخافي.

حضنها، شّم شذى أنفاسها العطرة، تحسّس وجهها الجميل بيديّه، لثمها بقبلةٍ، أستجابت له طائعةً، ذابت شفتاها بين شفتيه، كانت عطشى بشكلٍ جنوني، طالت القبلة، أمطرت في روحها سُحب الإنفعال التي انبثقت من بين ذراعي هليل، طالت أكثر من اللازم.

أوجس هليل أن الثلاثة، ربما عادوا يتضاحكون الى الصالة، مسك ذراعها، صعدا السلم بسرعة، كان يدفعُها بحنوٍ بالغٍ الى الأعلى من ظهرها ومؤخرتها، تستجيب الى أندفاعاته، تكاد تطلق ضحكاتٍ مكتومةٍ، وسط أجواء التوتر، وصلا الى الأعلى، قبل دخولهما الى الغرفة، مسكها من ذراعيها مرة آخرى، أخذ يرتشف شفتيها، أسكّره رحيق أنفاسها العطرة، أستغرقت قبلتهما طويلا، تحسس جسدها بين ذراعيه، وضع كفيه على مؤخرتها اللينة، ضغطها الى وسطه، حشر فخذه بين فخذيها، مستجيبة له، ذائبة بين أحضانه، سابحة في فيوضات ندى يرشق وجهها ومسامات جسدها اليابسة برطوبتها المعطرة، حلقت روحها في أزمان بعيدة كانت تستطعم فيها جمال الحياة على فراش زوجها، حتى كادت أن تقع أرضاً من الدوار وإنفلات توازنها، وهي بين ذراعيه يمص شفتيها بعنف ورغبة جارفة.

حلمت كثيراً بهذه اللحظات التي تحلق فيها روحها لتعانق الذرات العالقة بإنوار النجوم، أنستها ماضيها الحزين، بدأت تتنفس حريتها المختبئة، وهي تمر بمشاعر تفيض جنوناً.
لما أنتهى من إحتضانها وتقبيلها، كادت تقع أرضا، رجعت خطوة الى الوراء، مسكت جبهتها كأنمّا تقول لنفسها " أين كنت" عادت بها هذه القبلة الى حياة احلامها البدائية الأولى، قبل أن تفيق منها، تذكرت المتعة الزائلة التي تندثر بسهولة ليصبح طعمها علقما لإنها أنتهت، أفاقت من قبلة لذيذة، وجدت نفسها تقول "لابد من تكرارها إن واتتها الفرصة ثانية"، فالحياة بالنسبة لها، فرص قليلة للمتعة، عادا الى وضعهما الطبيعي، دخلا الى الغرفة، همس بإذنها:
- الى فراشكِ.
قالت له مازحة وهي تضحك بخفوت:
- بل كلانا الى فراشك.
هامسا:
- يا مجنونة، لا تفضحينا، اذهبي الى فراشك بدون مشاكل.
أمتثلت الى أمره، تحسّست بقدمها فراشها الفارغ، لمّا عثرت عليه، تمددّت فوقه، وتحسّس بقدمه فراشه، قبل أن يأوي إليه، سمع صوت الرجل الضرير،
- منو هذا أخذ عيوني؟ ولكم رجعولي عيوني، وين رايحين؟
أستيقظت صفاء زوجته، رأت في الظلام، خيالاً تمددّ على فراشه، علمت أنه هليل آوى الى مكانه، ألقت نظرة الى فراش أحلام، وجدتها ساكنة، أيقنت أنها تغّط بنومٍ عميق، شعرت بالراحة والاطمئنان.
الى زوجها:
- نم يا عزيز، لا تقلقنا بكوابيسك، نم أرجوك.

غير أن رنا أستيقظت هي الآخرى، تحسّست بيدها أحلام الراقدة بجانبها، أوهمتها هذه كأنمّا غافية. عادت رنا الى النوم.

13

ما أن حطّ هليل رأسه على الوسادة، بعد أنجاز مهمة قضاء حاجة أحلام، حتى شعر ببهجةٍ غمرته، محت مؤقتاً مصائب كل الحروب التي مرّت بها حياته، تذكّر القبلتين، يشبه إرتشافهما طعم العسل، حلّقت روحه فوق المروج سابحةً مثل طائرٍ.

وفي تلك اللحظات، التي سرح بها خياله ليستذكر إرتشاف الشفتين، جاءت صفاء زوجة الضرير لتوقظه. تسير على الأربع في الظلام:

- هليل هل أنت نائم؟

أزاح البطانية عن وجهه مذعوراً، تلمس ذراعاً عارية، فقال من دون أن يكتشف من يتحدث إليه:

- أبتعدي عني أحلام، أريد أن أنام من فضلك، أنا متعب جدا.

بالرغم من أن صفاء فوجئت من تردد أسم غير إسمها، بصوتٍ خافتٍ:

- هليل أنا صفاء زوجة الضرير، إذا سمحت، زوجي يريد قضاء حاجته.

نهض بسرعةٍ، خَجِل منها:

- صار، أنا جاهز.

أزاح البطانية:

- أطلب منك أن تخبريه ألا يتكلم على السلم، أو تحته، أخشى أن يسمعنا هؤلاء الغرباء في الإسفل.

هامسة:

- لا تهتّم، سأبلغه بذلك، سأرافقكما أيضا.

أنسل هليل من فراشه، لبس خفّه، سبقهما الى الباب، كانت أحلام تصغي الى حديثهما، أشتعلت بالغيرة والحقد.

عادت صفاء تسير الى الأربع الى زوجِها، أخبرته بأن يجّهز نفسه، قالت له مثلما أراد هليل، ألا يتكلم أبداً أثناء نزول السلم، في الطريق الى الحمام.
نهض الرجل، تسحبه بيدها، قادته خارج الغرفة، حيث يقف هليل، أمسك بيّده، همس بإذنه:
- أرجوك لا تتكلم بإية كلمة.
هزّ الرجل رأسه موافقاً، ثم أمسكت به زوجته، وضع يده اليمنى على الدرابزون، يسبقهما هليل بدرجةٍ واحدةٍ على السلم، كانوا ينزلونه بهدوء وصمت مطبق، حابسي أنفاسهم، لا يعلم هليل أن صفاء خلفه، ترتدي ثوب النوم الشفاف القصير، الذي يظهر نصف فخذيها، لا تنام ألا بهذه الملابس الخفيفة، جسدها يتعرّق بسرعةٍ إن لبست ثوبا قطنياً أو صوفياً أثناء النوم، بلغت حالة هليل حداً من التوتر النفسي، لم يبلغها في حياته كلها، حتى في أشدّ السنوات الصعبة، أيام العسكرية في جبهة الحرب الايرانية أو حرب الكويت أو الحصار.
كانت صفاء تنظر الى شعر هليل، برغم الظلام، يدها اليسرى طليقة، والآخرى تُمسك بها زوجها، احتارت بهذه اليد الطليقة، ماذا تفعل بها؟ هل تمسّد على شعر الرجل الغريب، عبّرت تصرّفاته، طوال الساعات الماضية عن رجولته واريّحيته؟ أن مشاعرها متضاربة، هي أصغر سناً من زوجها، لا تستطيع أن تهضُم عطل الحياة في جسدهِ، بعد أن كان يسرحُ ويمرحُ فوق جسدها الأبيض، تعطّلت حياته منذ أن سُرقت عيناه، منذ أن سرقوا روحه الجميلة، بقي على حافة الحياة، يُقاد من ظلامٍ الى ظلامٍ، ليس لديه من أملٍ سوى أن يسمع صوت أبنه المغترب، ولده الحبيب، الذي هيأ له، كل ما يحتاج إليه، لكي يسافر الى أوروبا، بات

الضرير يأمل أن يحتضنه، ويأمل أن يأخذه الى مستشفيات برلين، كي يستردوا له بصره، بأن يأتي الى ألمانيا مع أمه.
هذه الخواطر صبرّته على تجرّع ألم المغامرة في عبور البحر، مغامرة لانهاية لها، يُقاد الآن الى الحمام، إي حياة تعيسة هذه التي يعيشها، صعب عليه حتى الوصول الى الحمام بنفسه؟ غير قادر أن يتخلّى عن مساعدة البشر!
يد صفاء اليسرى مازالت طليقه، تلوّح بها ضجراً ويأساً من حياتها، التي أصبحت بلا معنى، تكاد تُغامر بها، لتلمس شعر هليل، وهو ينزل درجات السلم أمامها، يُمنعها من ذلك، أن زوجها يُمسك براحة يدها بقوةٍ، يعتصرها، كأنمّا اليد الحلال التي تُمسك بها، تمّنعها من إرتكاب آثام اليد الحرام، التي أخذت تفرط في إضطراب روحها، وتنّحدر بها. رفعت يدها الطليقة ، كادت تضعها على شعره، ثم أوقفتها، مثل مظلة فوق رأسه، حرّكت أصابعها فوق أعلى خصلاته النافرة، روحها اللائبة معلقة بين أصابعها، صارت مظلة لرأسه، لا تعرف ماذا تفعل بها، تريد أن تمسد على شعيراته، تريد أن تمسك بها، تجره اليها، يدعوها الظلام أن تفعل ما تشاء، ظلام عيني زوجها، وظلام السلم الذي ينزلونه، وظلام الحياة التي لم تمنحها ما تريد، منابع الجمال لديها غرّقتها، ماذا تفعل لهذه المنابع كي توقفها عن الجريان، ليس هناك في عقلها زر تضغطه كي تتوقف روحها عن الضياع في متاهات الجنون، لكن ضغطت يد زوجها الأخيرة، القت بالماء على وجهها لتصحو من خيالها الذي ذهب بعيدا.
وصلوا الى نهاية السلالم، يُجلس الغرباء في غرفةٍ من الغرف، أبتعدوا عن الصالة، باب احدى الغرفة مغلق، يبدو أنهم ناموا.
فقال لها هليل بصوت خافت:
ـ ناموا، هذا هو الحمام، خذي زوجك إليه، أطلبي منه ألا يحدث صوتاً.

همست باذنه ضاحكةً:
- كيف يمكنه أن يمنع الأصوات؟
أضافت:
- هليل، لا يمكنني العثور على مكان المقعد المناسب.
أمسك بيّد الرجل، قال لها:
- أنتظري هنا.
بحث عن القداحة في جيبي بنطلونه، لما وجدها، أضاء الحمام، أجلسه في المكان المناسب، خرج منه، مازال المصباح مضاءً، أكّتشف هليل، أنها ترتدي ثوبا شفافا بنفسجي، لا يغطي الا النزر القليل من جسدها، قال في نفسه: "عليمن لابسه هذا الثوب".
أطفئ المصباح بسرعةٍ، ذلك لأن وضعيّة المرأة بهذه الملابس، ستكون فريسةً للغرباء السكارى، قد يتصاعد الفضول لديّهم الى حد الإضطراب إن أكتشفوا وجود امرأةٍ شبه عارية، ربما تخرجُ الأمور عن السيطرة.
وقفت صفاء بجانبه، ثوبها الشفاف دوّخه، ظهر يدها يلامس يده، أبتعد عن ملامستها، تزحزح عنها خطوة واحدة، أخذ يصغي الى شخير الغرباء، هدأت نفسه، خفّ توتره، بعد قليل سُمِعَ من جوف الحمام أصواتاً خارجة من الضرير، فقال لها ضاحكا:
- لا على المحصور حرج!
لمداراة خجلها، أقتربت صفاء منه، لامسته، من دون حياء، صار فخذها قريبا من يده، أحسّ بدفئهِ، مسكت يده، أخذتها إليها، تعلم أنها ترتكبُ أثماً في مداعبة رجل غريب، ثمة صوت في داخلها، يدفعُها أن تمرّر يده الى منابع جسدها. فجأة، أطلق زوجها حشرجة، قمعت وسوسة الصوت الآثم، في لحظةٍ صافيةٍ، تجلّت فيها فطرتُها، تركت يده، حشرجته، تعني

أن زوجها، يريد الخروج من الحمام، أضاء هليل المصباح، تقّدم ليُمسك به، خرج الضرير يبحث بيّديه عمن يقوده من ظلمات عينيه.
بدأوا يصعدون السلّم بخطىٍ بطيئةٍ، على إيقاع خطوات الضرير، هذه المرة هليل هو الذي يُمسك بيّده اليمنى، بينما يسرى الضرير تتحسّس الدربزون صعوداً، مضت صفاء تسير بجانب هليل، قال الضرير:
- لماذا تُمسك بي أنت وليست صفاء؟ هل هي خلفنا أم أمامنا؟
قالت له:
- أنني خلفكما، لا يتّسع السلّم لنا نحن الثلاثة.
أبتسم هليل لكذّبها المفضوح، تصعد بجانبه، يدها تلامس يده، تتمنى صفاء أن تأخذ بيده الى عذوبة جسدها، لكنّ هليل مازال يستطعم، أثر السباحة في مروج أحلام، ليس مستساغاً عنده، أن يسمح لهذه المرأة المتزوجة، التلاعب بإعصابه، ثم قال في نفسه: "هي بقت عندي أعصاب".
وصلوا الى الغرفة بسلام، بدون أحداث ضجةٍ تتسبّب باحراجهم، أضاء مصباح القداحة في الغرفة، ألقى بخيط الضوء على النائمين، وجد أحلام مازالت مستيّقظة، واضعةً يديها تحت حنكها، نائمة على بطنها، تنتظر عودتهم مُجَمّرة، تابعت دخول الثلاثة، أضاء المصباح الى فراش الزوجين، عاد الى فراشه، قبل أن يأوي إليه، أطفئه، نام واضعاً البطانية على جسده المُتعَب، غير أنه بعد دقائق قليلة، تلّقى ضربةً بقدمهِ من قدمٍ حافيةٍ رقيقةٍ، عَلِمَ من هي صاحبة الضربة ودوافعها. أبتسم ونام.

14

توقّع هليل، أن الذي ضربه بقدمهِ، هي أحلام لا غيرها، لتعّبر عن غيرتها من زوجة الضرير، بعد أن رافقهما الى الحمام، غير أن الذي ضربهُ، هي رنا زوجة عماد، كانت تُزيح عن وجهه البطانية، فيعيدها متذمراً من تصرفات أحلام الصبيانية، كلما أزاحت رنا البطانية عن وجهه، يعيدها إليه، شاعراً بالتعب والإجهاد، حتى قال لها:

- كفى أحلام.. أرجوك!

لم تُفاجئ رنا من ردة فعله، قالت له هامسة بإذنه، من خلف البطانية:

- هليل أنا رنا، أستيقظ أرجوك حتى ترافقنا أنا وزوجي الى الحمام.

فزّ مذعوراً، لم يصدّق ما يجري، هذه هي المرة الثانية، يظنها أحلام فيخطئ بسواها، " ماذا دهاني "؟

سحب القداحة من جيب بنطلونه، أضاءه باتجاه الوجه الجميل والرموش السود، رنا تبتسم له، تُمسك بطرف البطانية، حتى لا يكرر سحبها على وجهه، تجلس على قدميها كاشفة عن فخذيّها، ترتدي ثوباً حريرياً قصيراً يصل الى حد الركبتين.

جلس غير مصدق، قال لها:

- من هو المحصور زوجك أم أنت؟

- كلانا.

نهض وهو يردد "أندهرنا".

عادت رنا الى مكانها، أيقظت زوجها، بقي هليل يفكر، لماذا لا يأخذ الرجل زوجته الى الإسفل؟ أليس هو زوجها حامي شرفها؟ هزّ يده، قال

في نفسه "يبدو أن هذا بحياته كلها ما دخل في الخدمة العسكرية ولم ير ملاجئ التراب والجينكو".
كان يحلم، غير أن رنا قطعت حلمه وهو يحتضن الأرملة بين المروج، قال في نفسه " للنخوة الأنسانية أحكام وسنن"، لابد أن يستجيب الى ندائها، أراد أن يقول لها "أن الغرباء ناموا"، لكنه وجد عدم أنسجام ذلك مع طباعه، أحكم شدّ حزام بنطلونه، سبقهما الى باب الغرفة.
أضاء مصباحه الصغير باتجاه فراش رنا وزوجها، أحلام تنظر إليه مبتسمة، أشارت بسبابتها مازحة، كأنها تقول "الويل لك أن تماديت مع زوجة أخي"، أعرض عنها، لينظر الى أسفل السلم.
رأى أحد الغرباء يتسلل متمايلاً من غرفة منامهم، دخل الى الحمام، أطفئ هليل المصباح فوراً، أوقف رنا وزوجها بذراعه داخل الغرفة، طالباً منهما التريّث عند النزول حالياً، حتى يخرجُ الغريب من الحمام.
وقف عماد بجانبه، أراد أن يقول له شيئاً، كما هجس بذلك هليل، أرتاحت رنا من قمعه لزوجها عن الكلام، أحسّت بالراحة منه، تشعر بالغيظ، لإستخفاف حماتها بنفسها، تظنُ رنا أن أحلام افتعلت مرحها، بدأت بتصرفاتٍ، لم تعهدها فيها من قبل، هدفها إستمالة هذا الرجل الذي يعيش في عالمٍ بعيدٍ عنها.
غير أنها (هكذا تدفقت الخواطر في ذهن رنا) مسكينة تحتاج الى أحضان دافئةٍ، بعد مقتل زوجها، بعملية أغتيالٍ، لم تُعرف هوية القتلة لحد الآن، لم يبقَ لها في الحياة سوى عماد، الذي لا يبالي بتصرفات أخته.
جاءت إليه ذات يوم بذهبها وامولها، قدمتها له، تطلب منه الهروب من العراق، وافق عماد نتيجة ضيق الحياة وتصحرها في البلد، بعد أن تسيّد الغرباء أركان الحكم، صاروا سبباً في تعاسة الناس.

يعمل عماد في دكان صغير بشارع الكفاح، لبيع السجائر بالجملة، غير أن هذه التجارة صارت خطيرة، يتاجر بها شبان صغار يتحكّمون بالسوق يهدّدون الناس بزعم أنتماءاتهم الى مجموعات أسلاميةٍ مسلحةٍ، فاضطر أن يترك المحل ويتّجه الى فتح دكان في محلته لبيع الملابس النسائية.

خرج الرجل الغريب من الحمام، نزل الثلاثة السلم المظلّم من دون أن يضيء هليل مصباحه، خشية من المفاجئات، ما أن وصلوا الى منتصفه، حتى خرج أحد الغرباء من الغرفة الى الحمام.

توقف الثلاثة في مكانهم، جلسوا على الدرجة التي وصلوا إليها، رنا بينهما، تستمع الى لهاث هليل، ممتعضا من وجود الغرباء في سكنٍ واحدٍ معهم.

غير أن رنا، بغريزة خوفها من المجهول، لصقت فخذها بزوجها، أمسكت ساعده تحضنها، بعفوية احتكت فخذها بفخذه هليل، بادر الى لملمة ساقيه، تعتقد أنها بريئة في تصرفها، غير أن هليل عدّ ذلك أستباحة له، يكفي ما يجري له مع أحلام.

خرج الغريب من الحمام، بقي الثلاثة في مكانهم جالسين، حتى أطمأن هليل، أشار لهم بسرعة النزول، بلا ضجةٍ، وصلوا تحت السلّم، دخل عماد الى الحمام، بقيت رنا بقامتها الطويلة تقف بجانب هليل، يصغي بحذر الى صمت الغرباء.

يستمع الى تنفس رنا، غمره عطرها، يشبه عطر أحلام، لم يأبه له، خرج عماد من الحمام، فقال هليل لها:

- سأدخل أنا وأنتِ من بعدي.

دخل ليعبّر عن حاجته، وقفت رنا وزوجها بالإنتظار، مضت دقيقة، فجأة، سمع هليل، وهو في الحمام، صوتاً غريباً تحت السلم، قريباً من رنا وزوجها، سمع لغط الغرباء ورطانتهم، صرخت رنا:

- أنت شتريد مني، عوفني أبن الكلب!

كُتم صوتها بسرعةٍ.

خرج هليل مذعوراً من الحمام، يزرّر بنطلونه، لم يجد رنا، طُرح زوجها على الأرض مضرجاً بالدم، ينبجس من خلف رأسه. تركه هليل، هرع الى خارج البيت ليرى أين ذهبوا بالمرأة، لاحظ سيارة سوداء تنطلق بسرعة.

15

لا تعلم رنا الى أين يأخذونها، مكبلة اليدين، يرطنون بلغةٍ لا تفمهما، اثنان يجلسان في حوض السيارة الخلفي يحيّطان بها، أحدهما وضع أصابعه بين فخذيها، الثالث يقودها.
تنظر عبر زجاج السيارة الأمامي المظلّل، لا ترى سوى الظلام، ونور مصابيحها في طريق متعرج، على جانبيه أشجار كثيفة، لا يُكشف الضوء ألا عن النِزر اليّسير من الطريق.
تسير السيارة بسرعةٍ، لا أثر لسياراتٍ مقبلة ولا أثر لآخرى خلفها، غابة موحشة، تجاهر بعدائيتها لها، صامتة، مخيفة. هي الآن بقبضة ذئاب الغابة.
لكنها لا تريد أن تُهزم، فالهزيمة ليست من خصالها، فقد تعلمّت الكثير من الحياة، علّمتها حكمتها، ألا تُبدد طاقتها بالصراخ والذعر والخوف والاستسلام، تقول لها تلك الحكمة، أن الذي وقع قد وقع، أية محاولة للمقاومة لا تنفع، حتى هذا الذي يعبث بين فخذيها تركته.
أكدت لنفسها، "أن مقاومتها لا طائل تحتها، ستجعل طاقتها تتضاءل، ربما تنفد منها بسرعة".
تعلم رنا أن أقصى ما لدى هؤلاء الذئاب أشباع رغباتهم، ليس هناك أكثر من ذلك، صحيح أن الشرف أهم من الحياة، العكس قد يحصل، المهم ألا تستسلم للموت.
أن هؤلاء ليس في نيّتهم قتلها، فقد قرأت في عيونهم الشهوة فقط، لذلك، بقي قلبها يرّف على زوجها عماد الذي ضربهُ أحدهم على مؤخرةِ رأسهِ،

ضربةً مباغتةً، بحركةٍ سريعةٍ، أحتضنها أحدهم من الخلف، برغم قامتها الطويلة، رفعها عن الأرض، وركض بها الى السيارة، فتح الآخر بابها، لتستّقر فيها.
أستغربت أن هليل لم يسرع لإنقاذها بالخروج فوراً من الحمام، فلو كان موجوداً، ربما أنقذها، حتى لمّا صرخت، كانت تبعث برسالتها الإخيرة إليه.
مازالوا يرطنون بإنفعال، بدا السائق عصبياً، غير مرتاح بالمرة، نظرت الى الشاب الذي يجلسُ بجانبِها الأيّمن، وجدت على خده الأيسر علامة جرحٍ قديم، يبدو أقل قسوة من زميله على الجهة اليسرى، الذي ترك فخذيها.
على يسارها شاب قاسٍ، ربط يديّها الى الأمام بخرقةٍ من الحرير، لم تكن محكمة، ركزّت نظرها الى الطريق، لعّل دورية بوليس توقفهم، لعل مجموعة من رجال ضائعين في الغابة، يوقفون السيارة، أين ذهب العراقيون الذين كانوا يأوون إليها مثلهم بانتظار أن تسمح لهم ظروفهم عبور البحر باتجاه أوروبا؟
تمتلك رنا قواماً طويلاً، مكنّها ذات يومٍ، لإختيارها من قبل مدرستها بدرس الرياضة في الثانوية، أن تكون لاعبة كرة سلة، عارض والدها إختيارها، أقنعته والدتها بذلك، وقَبِل على مضضٍ.
أصبحت لاعبة كرة سلة ماهرة، حققت معدلاً متواضعاً بنتائج إمتحان البكلوريا، قُبِلت في كلية التربية الرياضية، بسبب رشاقتها وقامتها الفارعة، صارت لاعبة كرة السلة مهمة في الكلية، بات لا يمكن الإستغناء عنها، في كّل المسابقات الرياضية، التي أجرتها الكلية.

ذات نهارٍ، تعلّقت بمُدربِها وأستاذها، لم تستّمع الى غزل الحب طوال حياتها، قبل الكليّة، قال لها مدربها "أحّبُ قوامك الرشيق"، رفرف قلبَها، لأول مرّة شعرت بالإنجذاب والحُب.

حتى فترة مراهقتها عدّت بسلام، لم يحدثُ ما يجعلها تندم عليه، في تلك الفترة الصعبة، كان أغلب مراهقي المنطقة يتفادونها، بسبب جديتها في المشي، وعدم فسح المجال، لإي واحدٍ أن يلهو معها.

حاول شاب مراهق أن يُسمعها كلاماً خلاعياً، قالت له: أتقصدني بكلامك؟ بقي الشاب حائراً لا يعرف ماذا يقول! أقتربت منه، صفعته على خده، بلطمةٍ مدويةٍ أوقعته أرضاً، هرب منها، بحثاً عن حجارةٍ ليرميها، حدست بنواياه، ركضت خلفه.

أعطت حقيبتها المدرسية لزميلة كانت ترافقها، تمكّنت من الإنقضاض عليه، لتشبعه ركلات، تجمع الناس حولها، باركوا سعيها في ردع هؤلاء المراهقين الصغار.

لم تمّر بإيام مراهقة مثل صديقاتها وزميلاتها اللواتي يتفاخرن برسائل الغرام في حقائبهم.

حبُها الوحيد أنطلقت سهامهُ الى الإستاذ مدربها، لم تدرك، ألا بعد سنواتٍ، أن أستاذها متزوج، تركت لعبة كرة السلة، تخّرجت، أصبحت مدرّسة رياضة مكسورة القلب.

جاء عماد، خطبها من والدها التاجر، قبلت، حافظت على رشاقتها ولياقتها، حتى في أيام الزواج.

هاهي الأيام تجعلها مقبلة على امتحان صعب، بين هؤلاء الثلاثة، الذين تركوا أخت زوجها الأرملة، وزوجة الضرير، فوقعت هي في قبضتهم.

لا تريد الانزلاق الى التهور بدون ان تحكّم عقلها، يقول عقلها إنها أنثى، ويمكن للأنثى أن تمارس كل بدائياتها، لتفعل أي شيء، في سبيل إنقاذ حياتها.
مضت تراقبهم، يرطنون، يتماحكون يتساخفون، أستطاعت أن تعرف من هو، بينهم، أكثر نقطة ضعفهم، إنه الجالس على يمينها، صاحب الندبة على خده الأيسر.
وصلت السيارة الى كوخٍ مضاءٍ من الداخل، دخلوا بها الى ممرٍ يفضي الى مدخل الكوخ، فتح لها الباب الشخص الذي كان يجلس إلى يمينها، سحبها إليه بقبضةٍ ناعمةٍ من ذراعها.
أدركت إنه بغيتها، حين نظرت إلى قلق عينيه وسطوة الشهوة عليهما، سارت بينهم، دخلوا الى الصالة، أجواء خمرة ورائحة سجائر وموسيقى تنبعث من حاسبة مفتوحة، وضوء من مكان في زاوية الصالة، صوت مولدة كهرباء بالكاد تُسمع.
رطنوا بينهم، أجلسوها على أريكةٍ واسعةٍ، بقي صاحب الندبة معها، اختفى الآخران، راقبت عيني الشخص الذي يحرسها، مازالت تتدفق منهما الشهوة، يبتسم لها أبتسامة سخيفة، تشيح نظرها عنه، ولكنه لمّا أبتسم آخر مرة، أبتسمت له. أرتاحت هواجسه، بدا عليه الإنشراح والسعادة.
رفعت يديّها المكبلتين، بدعوى واضحة، لفّك الرباط، مثلب كلب أبلق، جلس على ركبتيه بين فخذيها المكشوفتين، قبّل يديها، قبل أن يفّك الرباط الحريري عنهما، قامت هي بالضغط على جانبيه بين فخذيها، بإشارةٍ أستلمها الحارس بوضوح، كان يفك الرباط وهو يقبّلها من شفتيها، رغم نفورها من رائحة الخمرة، ألا إنها وضعت لسانها في فمه.

تحررت يداها، نظرت إليه تلك النظرة التي تشع أغراءً وإقبالاً، ظهر على الحارس، إنه لم ير في حياته مثل نظرتها، أبتعد قليلا عنها، ليفيق من جمال قبلتها، تمعن بجسدها لينظر الى الفخذين المكشوفتين والصدر والشفتين، حتى تسريحة الشعر وقوامها الفارع الرشيق.
أرسلت نداءات شبقية، هذا الجسد بين يديه الآن، كله ملكاً له، زاد من جمالها، إنها ترتدي ثوباً حريرياً مكشوف الذراعين، فتحت له فخذيها، حتى يرى نقطة الينابيع العذبة.
جاء الآخران، بايدي كلّ واحد منهما قدحاً، رطنا معه، تحرك الحارس نحوها، أخذها من ذراعها برقة وعذوبة الى الغرفة.
بقي الآخران في الصالة يحتسيان شرابهما ويرطنان، ويتضاحكان، ويدخنان، ويستمعان الى الموسيقى، نهض أحدهما الى الحاسبة التي تبث الموسيقى، لعب بالماوس، أوقف الموسيقى، دخل الى أحد المواقع الإباحية ليرى فيلما.
جاء الشخص الآخر، جلس بجانبه يشاهد الفيلم، رطن أحدهما، قام الآخر بخفض صوت الفيلم، كي يستمعا الى صوت المرأة، مضت نصف ساعة، لم يسمعا إي صوتٍ في الغرفة.
توقعا أنهما ناما بعد ممارسة الحب، نهض أحدهما ليرى ماذا يجري خلف الباب الموصد، لم يَسمع شيئاً، جاء ليُخبر زميله، لا صوت في الغرفة، نهض الآخر، نادى على زميلهما، من دون أجابة.
وضع يده على أكرة الباب، دخلا الغرفة، الزميل كان عارياً، رُبطت قدماه الى السرير، يداه الى الخلف وكُمم فمه، ولا أثر للمرأة، اختفى مسدسه. فكا رباط يديه، هرع الإثنان الى الباب الخلفي، وجداه مفتوحاً باتجاه الغابة.

16

تركض رنا في الغابة المظلمة، بيّدها المسدس الذي سرقته، وفي اليد الآخرى حقيبة صغيرة عائدة للرجل الذي أغتصبها، لا تعرف ماذا تحوي، لكنها بدافع عزّتها بنفسها، ألتقطت هذه الحقيبة التي تشبه حقائب النساء، لا تعرف كيف واتتها الأفكار، التي توقعت ستنقذها من القتل، وهي تحت الرجل، عندما طويت يديه الى الخلف، كان في قمة نشوته وسعادته، طلبت منه أثناء لهاث السعادة، أن تغلق عينيه أيضا، بقطعة حرير اقتطعتها من ثوبها الشفاف.

خرجت تمشي على أطراف أصابعها من باب الكوخ الخلفي، ثم بدأت تهرول بلياقة من دون أن يصيبها التعب، مضت ساعة على هروبها حافية القدمين، غُرزت بعض النباتات أشواكها في قدميها، فلم تبال.

بدأت تمشي، تعتقد أن المسافة التي ركضتها، كافية لأن تتوقع، أقترابها من كوخ سكناهم مع زوجها وحماتها وبقية العراقيين، لا يكشف لها الظلام الحالك المكان المحدد الذاهبة إليه، ثمة رائحة عشب يابس محترق، تتوقع أن مجموعة بشرية لابد أن تتواجد قريبا منها، في هذه الظلمة الموحشة، تذكرت، أنها تتخبط في الظلام، وجسدها يوهن، الى أين يمكن أن يؤدي بها هذا الخبط؟ علّمتها رياضة كرة السلة، أن المسافة التي تقطعها الكرة من لحظة رميها الى الشبكة، تتضاءل فيها السرعة حين يكون الإندفاع أقل مما يجب، يحلّل عقلها الفيزيائي الآن، بين المسافة التي قطعتها بالسيارة وبين ركضها الآن، لاحظت أنها بدأت تتساوى.

ما أربك حساباتها الرياضية والفيزيائية، أن رائحة العشب اليابس المحروق، تقترب منها، أوجست فجأة، أنها قد تكون ركضت في المكان نفسه، أي في محيط الكوخ التي أُختطفت إليه، لا يمكنها الإهتداء الى إي نقطة ضوءٍ أو نورٍ في هذا الظلام الكثيف الذي تتعثر فيه، بحيث أنها لا ترى منه، حتى أصابع يديها.

بدأت تمشي ببطء، بعد أن ضعف جسدها، باتت غير قادرٍ على مطاوعة عقلها الراكض نحو الهدف، جمّد البردُ أطرافها، رغم تعرّقها في هذا الزمهرير، لا تعلم كيف طاوعتها رشاقتها في الإفلات من قبضة الرجل الآخير، وقد أخذ منها ما يريد، قالت لنفسها "الحياة أجمل من الموت".

أقتربت أكثر من رائحة العشب، ابطأت خطواتها، تلفتت الى جميع الجهات، بحثاً عن نورٍ أو ضوءٍ في اسوداد الدنيا.

بعد دقائق من مسيرها البطيء، لاحظت ثمة ومضات، سرعان ما تختفي، تلوح لها، مثل جمرات تشتّعل ثم تنطفئ، مضت تمشي براحتها، وجلة القلب، تناهى الى سمعها عويل يأتي من بعيد، عويل خافتٍ، مخنوقٍ، لحيواناتٍ، ربما تريد التزاوج، هذه الحيوانات سوف لا تكون خطرة، لأنها في شغلٍ عما يحيط بها، ضحكت من حكاية هليل، عندما قال الى أحلام شيئاً عن الحيوانات المتهيجة، حكت لها هذه الحكاية، تحت البطانية، مفادها أن عويل بنات آوى لذكورها مفضوح مكشوف لغرض الاجتماع، ولما سألته أحلام لماذا تطلب الأناث هذه الأجتماع، فقال حتى يتم النكاح، تذكرت أنها وبخّت أحلام لإصغائها الى هذه الحكايات الغبية، التي تحمل في طياتها إيحاءات جنسية، أصبح العويل حاداً رهيباً، يصدر من مكان قريب لوميض الجمرات، دبّ الخوف في نفسها بشكل متعاظم، طمأنت نفسها بالقول "أنه خوف غريزي ليس مثل خوفها من الحيوانات البشرية المفترسة التي تظهر على وجوهها ما يخالف دواخلها ".

تخشى رنا الآن، من إنها، ربما تتجه الى المكان الخطأ، صار الطريق طينياً، فكّرت، ثمة ساقية قريبة، فهي بحاجة الى الإرتواء، لأن الجهد الذي بذلته في الركض، تسبّب بفقدان السوائل في جسمها، عطشت، لابد من جرعة ماء، كما أنها بحاجةٍ لقضاء حاجتها الإنسانية، بحاجةٍ لأن ترتاح، تلقي بجسدها المتعب على الفراش، ولكن ليس فراش عماد، زوجها الذي لم يكن كما ينبغي للرجال أن يكونوا! تريد الآن أن تنسى زوجها الخائب، فهي منذ أن تزوجته، تعرف جبنه وبخله وحرصه على الدنيا.

قبل أن تستمر بخطواتها الى الأمام، سمعت صوتاً بشرياً، رجاليا، أختبات خلف شجرةٍ كبيرةٍ، تحسّست بقدمها الارض، وجدت نفسها تغرق في الوحل، أنها قريبة من ساقية، جلست، تحسّست بيدها مجرى المياه، أغترفت لتروي عطشها، بالوقت نفسه، داهمتها الرغبة لقضاء حاجتها الانسانية، قالت لنفسها، لأرتو أولا، لما أنتهت، تفرغت لحاجتها، بعد قليل، أغترفت ثانية غسلت وجهها، لظنها أن المياه جرفت أدرارها، أحسّت بالإرتواء والراحة، الا أنها عندما ألتفتت للسير الى طريقها، فجأة، وجدت رجلاً يقف خلفها، ذعرت منه، كادت أن تهرب، ألا إنه أقترب منها بابتسامةٍ، رجل كبير السن بلحيةٍ بيضاء، وضع يديّه على كتفيها. قال لها بلسان عربي فصيح:

- لا تخافي يا أبنتي.

17

أحسّت بالراحة والاطمئنان، عندما قال لها الرجل كبير السن "لا تخافي يا أبنتي" غير أن رنا استغربت إنه خاطبها بلغتها، بابتسامةٍ لمحتها برغم الظلام.

أوضح لها:

- إنك متعبة جداً، رافقيني الى مكان سترتاحين فيه.

سألته بصوتٍ خافتٍ، بعد أن تأكدّت إنها، بين يديّ رجلٍ يفيضُ رحمةً ونبلاً:

- ما هذا المكان؟

ألتفتَ إليها، بعد ابتعاده عنها، بخطوتين:

- ستعرفينه بعد قليل، ليس بعيداً من هنا.

سارت صامتة، لا يُسمع لها إي صوت سوى "بقبقبة" الطين والماء، حين تنقل قدميّها الحافيّتين، خطوةً أثر خطوةٍ، مضت دقائق، لاح لها مصباح بيت تحيطه الأشجار، يبدو أنه بُني منذ زمنٍ بعيد، نوافذه وبابه من الطراز القديم، سبقها الرجل الى ممرٍّ بين شجيرات، قبل دخولهما المبنى، أشار الى صنبورٍ يغذّي الحديقة بالمياه، طلب منها غسل قدميّها، أنّحنت، مهتدية بضوءٍ ينبعثُ من نافذةٍ قريبةٍ، تتلّفع بغطاءٍ وضعهُ الرجل على كتفيها، عباءة مبطنة بالصوف، أستشعرت دفئاً، أفتقدت إليه كثيراً، دخلت البيت، فناء قاعة دائرية، فوانيس في كل أرجائها، رجّحت أنها الآن في مكان يشبهُ المعّبد، مسجد أو كنيسة، بسبب روائحٍ عبقةٍ تسربت الى روحها، أحسّستها بالسكينة، دلِف الرجلُ الى أحد الغرف، طلب منها

أن تدخل خلفه، غرفة بيضوية، ثمة مصطبة خشبية موضوعة على شكل دائري تغطي مساحة الغرفة، تلتصق بالجدران، معدّة للجلوس أو النوم، ثمة أوانٍ نحاسية وفضية، تتوزّع معلقةً على جدران الغرفة:

- أستريحي هنا يا أبنتي.

ألقت بجسدها المُتّعَب على المصطبة، وهي مندهشة، دلف الرجل الى غرفة آخرى، من باب يقع داخل الصالة، أبقى الباب مفتوحاً، الغرفة مضاءة من الداخل، لم تر رنا شيئاً سوى الممر الذي يؤدي الى فناءات عديدةٍ. نظرت الى جسدها، بقايا طين عالق على أنحاء ساقيها وفخذيها وصدرها، تحسّست رقبتها، ثمة أوراق شجر يابسة تلصق بها، عاد الرجل يحمل إليها صينية مغطاة بشرشف وضعها بقربها، قال لها:

- لابد أنك جائعة.

رفع الغطاء، ماعون فيه شرائح بطاطا مقلية، خضار وخبز وكوب لبن، ظلّت عاجزة لثوانٍ، عن تناول الطعام، تنظر إليه.

بعد غيابه الى داخل الغرفة، بدأت تأكل، ألتهمت الشرائح بالخبز، أنهت وجبتها بسرعةٍ، شعرت بالشبع والارتواء.

بعد قليل، جلب لها الرجل ثوبا نسائياً:

- أرتدِ هذه الملابس، فهي أكثر حشمة من ملابسكِ.

مبتسماً، يتجنّب الرجل النظر الى فخذيها العاريتين والى صدرها المكشوف.

غادر الغرفة، أغلق الباب خلفه، أرتدت ثوب النساء فوق ملابسها الخفيفة، غمرها نعيم الدفء، وضعت الحقيبة التي دست فيها المسدس جانبا، حرصت عليها من الضياع، وسيلة أنقاذها، من أية مفاجآت، قد تواجهها، ثم وضعته تحت الوسادة، جلب الرجل بطانية وشرشفا:

- نامي يا أبنتي، نامي هنا في هذا المكان، حتى ترتاحي، بعدها، سنفكّر كيف يمكننا مساعدتك؟
نامت على المصطبة التي فُرشت بالديباج والسجاد المستعمل.
بعد ساعة أستيقظت من نومها، وهي تهرب من فزع كابوس مزعج، كان ذكور بنات آوى تطاردها في الغابة تريد أن تنكحها، ألقت نظرة من نافذة الغرفة المطلة على الغابة، ثمة ظلمة رهيبة، متوحشة، أغمضت عينيها، لا تريد أن تتذكر ما جرى لها.
جاء الرجل، بدأت تتضح ملامحه، وجه دائري تطفح الحمرة من وجنتيه، بلحيةٍ كثةٍ بيضاء تجلّل وجهه المبتسم على الدوام، جلس بقربها.
بعد قليل جلبت أمرأة مبتسمة أيضا، كبيرة السن مثل عمر الرجل، كوب شاي، وضعته أمامها وانصرفت، ألتفت الرجل إليها:
- أخبريني قصتك يا أبنتي.
أسئلة كثيرة تدور في ذهن رنا، ارجأتها حالياً، روت قصتها من لحظة نزولها السلم في البيت المهجور مع زوجها حتى إختطافها من قبل ثلاثة رجال.
تتحدث معه بصوتٍ هادئ، واثقة. بعد توقفٍ قليل، شربت فيه قدحاً من الماء، روت حكايتهم، من لحظة فشلهم بعبور البحر، حتى وصولهم الى البيت المهجور، أخبرته عن قلقها بمصير زوجها، الذي ضُرب رأسه بقوة، لما أنتهت، أخبرها الرجل:
- اطمأني، زوجك بخير، هناك أشخاص يمكنهم الإعتناء به.
بقيت صافنه تفكر بعبارته، من أين له أن يتأكد أنه بخير، قالها بثقةٍ، كأنه يعلم أنه بخير، شربت الشاي، سألته:
- كيف علمت أنه بخير؟
لم يجبها، اختفى في الغرفة، أرتدى ملابس آخرى:

- تعالي معي.

خرجا من باب المبنى، مسكها من ذراعها:

- ستكونين معهم بعد قليل.

سارت معه في الظلام، مدة عشرين دقيقة، حتى وجدت نفسها تصل الى البيت المهجور، صعدت الى الغرفة التي ينامون فيها، ينام زوجها لوحده، تحسّست الضماد حول رأسه، تغّط أحلام في النوم، صفاء وزوجها نائمان، تناهى الى سمعها شخير الضرير، التفتت الى الرجل الكبير، يضيء الفانوس وجهه الباسم، يقف عند الباب، لوّح لها، اختفى، نامت على فراشها، بجانب زوجها، بعد أن وضعت الحقيبة تحت الوسادة.

18

أستيقظ عماد من النوم، وجد زوجته رنا نائمة بجانبه، ما أن رآها، حتى نهض يريد أن يخبر الجميع يشاركوه فرحته، سكان الغرفة، يغطون في نوم عميق، بسبب سهرهم ليلة البارحة، وهم ينتظرون إطلالة هليل الذي ذهب للبحث عن رنا، بعد إختطافها، لم يعد حتى الآن، صاح عماد بصوت عال:

- اكعدوا.. رجعت رنا سالمة.

أول من سمعه، صفاء زوجة الضرير، فركّت عينيها لتتأكد، وجدتها نائمة، أيقظت زوجها الضرير، أخبرته.

تمتم الضرير:

- الحمد لله رب العالمين، تمت الإستجابة للدعاء، ألف الحمد لله والشكر، لننهض نصلي ركعتي شكر لله.

أيقظ عماد أخته أحلام، التي غطّت وجهها بالبطانية، كانت أكثر الموجودين قلقاً على مصير هليل، لم تنم، حتى قبل دقائق من وصول رنا، لكنها فزّت ثانية، قالت لأخيها:

- هل عثر عليها هليل؟ أين هو؟

لم يسمع عماد ما قالت، نهض كي يغسل وجهه، بقيت أحلام تفكر" كيف أنقذت رنا؟ من الذي أنقذها، هل فعلوا بها؟" نظرت الى فراش هليل الفارغ، كادت تطفر الدموع من عينيها، تذكّرت أنه صرّح لها هلعاً مذعوراً:

- سأبحث عنها، سأجدها، هؤلاء المجرمون من أبناء هذه الغابة، لا يخرجون عنها.

تعلم أحلام أن الندم أكل قلبه، بسبب عدم أستجابته السريعة بالخروج من الحمام، أخبرها هامساً، قبل أن يركض في الليل بحثاً عنها:

- أخذوني غفل.

في حين، جلس عماد يولول باكياً، يلّطم وجهه، لم يجشّم نفسه عناء الذهاب معه للبحث عن زوجته.

اختفى الثلاثة المجرمون طوال الليل، لم يقترب أحد منهم الى الكوخ، تخيلت أحلام خيالات مرعبة عن الوضع المأساوي التي ستمر به رنا، لكن جزءً من عقلها يقول "أنها لن تسمح لهم بقتلها، ربما تخضع الى إرادتهم الحيوانية"، تعلم إي شيطنة ودهاء تمتلك رنا، كانت حريصة، أن تستيقظ الآن، لتستمع لها، كيف تسللت من قبضتهم، هل لحق بها هليل ليساعدها، أم أنه ذهب الى المجهول؟

لاحظت أحلام أنها تدّس حقيبة صغيرة تحت وسادتها، ليس من عادة رنا أن تضع شيئاً يخصها تحت وسادتها، طالما أعجبت أحلام بسلوك رنا الحازم مع الرجال، لديها تجارب مرّة، تتعامل بغلظة معهم، نصحتها أكثر من مرة أن تترك إهتمامها بهليل، برغم إعجاب رنا الخفي بشخصيته المتوازنة، قالت أحلام بإلمٍ: "وين أنت هسه".

اقتربت صفاء من أحلام، سألتها:

- ألم تخبركم كيف تخلصت منهم؟

بجفاء:

- لا.. لم تخبرنا!

عادت صفاء حزينة الى مكانها قرب زوجها، الذي كان يصلي صلاة الشكر، لما أنتهى منها، عاد الى منامه، قبل أن يلتحف، سألها:

- صفاء، ألم يأت هليل معها؟
ردّت ببرود: لا.
نهضت، تنظر من النافذة المكسورة الى الغابة، المظلمة تترّقب عودته،" معقولة ثلاثة شبان أقوياء ينفردون بفتاة لا يفعلوا لها شيئا، أتوقع لا يتركوها تهرب، ألا إذا أعطتهم المقسوم، لو آني كنت بمكانها اعطيهم ما يريدون".
بعد دقائق قليلة، أستيقظت رنا، أحاطوها، سألتهم عن هليل،
قالوا لها:
- ذهب للبحث عنكِ، لم يعد لحد الآن.
أرتسم على وجهها الغضب، نهضت بطولها الفارع، وهم جالسون، لاحظوا أنها ترتدي ملابس نسائية قديمة، أخبرتهم بحزمٍ:
- سأذهب إليهم!
هلع زوجها:
- اكعدي راحة يمعودة، الدنيا ظلمة.
نظرت إليه بإحتقار، لأنه لم يكن رجلاً حقيقياً، يدافع عنها، يقف بوجوههم، حتى لو كانوا مسلحين.
سألتها أحلام:
- هل تعلمين بمكانهم؟
- نعم، بجانب الكوخ الذي سكناه أول مرة.
لاحظت صفاء دماً على قدمي رنا، سألتها عن ذلك:
- كنت أركض حافية، بعدين.. بعدين، أحكي لكم كل شيء.
أرتدت بنطلونها الجينز والحذاء الرياضي، أستلت الحقيبة من تحت وسادتها، علقتها بكتفها الأيمن:
- لا تخافوا عليّ، لدي مسدس أعرف كيف أستعمله.

ينظر لها عماد بإنكسار، يشعر أمامها بالضعة، وعدم قدرته الوقوف بوجهها، لمنعها من الذهاب، فيما تتمنى أحلام، أن تذهب معها، كادت تقول لها: "دعيني أذهب معك"، لكنها غير قادرة أن تكون صلبة، رشيقة الحركة مثلها، فهي تعرف رنا، إذا صممت على شيء، لن يخذلها عائق عن الإتيان به.

يهفو قلب أحلام شوقاً الى هليل الآن، ترى أين هو؟ ماذا يفعل؟ هل تاه في ظلامات الغابة؟ هل عثر عليهم؟ هل واجههم فقتلوه؟ ترقرقت الدموع في عينيها، وهي تراقب رنا كيف تحزّمت للمغادرة.

أخذت رنا تلفونها، من جيب قمصلتها، فوق الحقيبة الكبيرة، لما تأكدت أنه لم ينفد فيه شحنه، وضعته في جيب البنطلون، بحزم:

- سأتصل بكم في حال حصولي على إي خبر عنه.

خرجت بخطوات واثقة، بقي الأربعة يحدقون في وجوه بعضهم البعض، لاحظت صفاء، أن عماد لم يحرك ساكناً أو يقل شيئاً، كدعوته لها بمرافقتها، عاد الى مكانه يجلس فوق الفراش يضع يديه على خده.

تعلم أحلام أن أخاها، مدلل والديه، لم يذق طعم الخشونة في حياته أبداً، حتى خدمته العسكرية الألزامية، دفع والدها عنه البدل النقدي، كي لا يشارك في حرب إيران، دفع مبلغاً كبيراً.

تضطربُ المشاعر في داخل صفاء، لا تريد رنا أن تنجح في مهمتها، حتى يصاب قلب أحلام بالكمد، بالوقت نفسه، تتمنى أن يعود، لأنه أصبح لها جزءً من الحل، بسبب سواد الحياة، مع الضرير.

جعلتها مشاعرها المتضاربة، أن تردد:

- أخاف على رنا تقع في المحظور وينتقمون منها.

ردت عليها أحلام بعصبية:

- أن شاء الله ستنجح، قولي يا الله، ما هذا الفأل السيء؟

حزنت صفاء لأنها تلّقت رداً قاسياً.
بصوتٍ خافتٍ كسير نطق عماد:
- ستنجح حتما.
رد عليه الضرير:
- قل إن شاء الله ستنجح. لماذا تنسون الله؟
هزّ عماد يده غاضباً:
- إن شاء الله يا مله.
ردت صفاء بغضب أشد:
- حسّن ألفاظك، لو بيك خير، كنت دافعت عن زوجتك؟
همس لها الضرير، سمعوا قوله:
- لا يجوز مخاطبة الناس هكذا يا صفاء.
أنطلقت رنا تهرول في الغابة، يدها على الحقيبة. تفكر بالطريق الذي سلكه هليل، ماذا فعل، بعد أخباره باختطافها. أي طريق سلك؟
إنها متشوقة أن تلتقي به، وعندما تجده ستحضنه، وتقبله.

19

خرج هليل البارحة من البيت، وهو يغلي، بسبب عدم تمكنه اللحاق بالخاطفين في الوقت المناسب، يهرول، يعظ على نواجذه، لا يدري الى أين يأخذه الظلام، تذكّر أنه ركض مثلها أيام اشتداد القصف الايراني المعادي في جزيرة ام الرصاص، كان قد أصيب أحد أصدقاء الموضع أصابة بليغة، ركض الى الطبابة ليستدعي المضمد لأنقاذه، حمله على كتفه، نصف جذع المضمد الى الخلف، والنصف الآخر، قدميه ومؤخرته الى الامام، وصل به الى مكان تموضعهم، على ضوء القمر، تمكن الممرض من معالجة المصاب، بوقف نزيف فخذه.

يركض في الظلام نفسه، ينظر بصعوبة الى الطريق، وسط أشجار الزيتون، خيّل إليه أنه يرى الأشجار، مثل أفاعٍ تقف على ذيولها الطويلة، تريد التهامه، مهتديا بآثار إطار العجلة، بمصباح القداحة الصغير، الذي لا يفي بالغرض، تشتغل في ذهنه قوانين الفيزياء والرياضيات وطبيعة النفس المتسافلة.

يتوقع أن هؤلاء المجرمين لن يغادروا الغابة، يحتمون في مكانٍ آخر. قبل أن يغيّر أتجاهه في هذا الطريق الذي يركض فيه، سمع بوق باخرة تمخّر عباب البحر، عَلِمَ أنه يحاذي البحر أثناء هرولته، لم يُغيّر طريقه باتجاه آخر، هدفه الكوخ، الذي يفترض وجوده في مكان، حدده عقله، في ظلام هذه الغابة.

أنه لا يحيد عن المسار الصحيح، مازال بوق الباخرة المدنية يزعق، يبددّ السكون، ولا أثر للضوء في عمق الغابة، مضى يركض نحو نصف ساعة، لا يريد أن يستريح، برغم حاجته الى ذلك، فالمرأة المخطوفة، تعني شرفه وعزته، عندما تطوع من تلقاء نفسه، أن تكون المجموعة كلها، تحت حمايته، هم أفراد من العراقيين الضائعين في هذا الظلام. كما ضاع أجدادهم من قبل، في ظلامات كثيرة، وسط غابات شتى.

لم تبلغ روح هليل من الضياع مثلما بلغته الآن، يحاول اللحاق بالعجلة، ولكن الى أين يمضي؟ لا نشاط إنساني في هذه الظلمة، وحدها فقط الأفاعي منتصبة، يصغي الى "بقبقبة" حذاءه في الطين والاوحال، في داخله السؤال المؤذي: "هل يعود الى البيت المهجور ليعلن عن فشله من العثور عليها"؟

يستمع الآن الى عواء بنات آوى، تأتي أصواتها من كل مكان، عواءات نافرة تصم أسماعه، ذكرته بنات آوى بأحلام، كيف مازحها بقوله، أن الأناث تطلب الإجتماع بذكورها، قصة أخترعها خياله، لاحظ بعد نصف ساعة من الهرولة، وسط أفاعي الأشجار، وميضاً، فرّك عينيه، تأكد أنه ضوء فانوس أو مصباح، مشى على مهل، لم تخطئ حساباته الفيزيائية، في الاتجاه الذي سار إليه للكوخ، أطفئ مصباحه، حابساً أنفاسه، أقترب منه، يُضاء الكوخ من الداخل، بضع خطوات ليصل الى بابه الرئيسي، نظر عبر النافذة الكبيرة الى داخله، مثل ذئب جائع، سيكون إي أنسان هدفه حتى ينقض عليه.

عندما لم يجد أحداً، لم يدخله من الباب الرئيسي، ما تعلمه من الخدمة العسكرية ضمن لواء بارق البطل للقوات الخاصة، المباغتة بالوقت المناسب، تسديد الضربات بسرعةٍ، من دون أن يفكر العدو، للحظة واحدة، في الدفاع عن نفسه، يسير محني الظهر بجانب سياج الكوخ الى

الباب الخلفي، ببطءٍ شديدٍ، عثر عليه، وجده مفتوحاً، دخله، ثمة صمت ثقيل، حدسه يقول، بأنه لا أحداً فيه، في الصالة حاسبة مفتوحة، شّم رائحة دخان سجائر، أنتقل بحذر الى الغرفة الآخرى، وجد بابها مواربا، مد سبابته، أحنى جذعه الى الوراء، فتحه، وهو في كامل التحفز لضرب إي أنسان قد يواجهه، غير أن الغرفة فارغة، عثر على وشاحٍ ملقى على الارض، لباسٍ داخلي، غير أن لا وجود للمرأة، أصيب بالخيبة، هل أخذوها الى مكانٍ آخرٍ؟ تدل اللوازم التي عثر عليها، أن رنا ربما تمكّنت من الهرب، حتى يستدل على فرضية هروبها، أتجه الى الباب الرئيسي للكوخ، حيث تركن السيارة، شاهد آثار شطح إطار العجلات على الأرض الطينية.

عاد الى الصالة، جلس أمام الحاسبة، تنفس بصعوبة، بسبب الركض المتواصل، شاهد ما تعرضه من فيلم، نفرّت نفسه بسرعة، تجول نظره في موجودات الكوخ، محفظة جيب متروكة على التلفاز، قال لنفسه "كافي استراحة " يجب أن ألحق بها، خرج من الكوخ راكضاً، بالطريق نفسه، فكر: " ربما عاكستني رنا أثناء هروبها" لم يكشف الظلام أثرها، مضى ساعة يهرول حتى دبّ التعب في أوصاله، أقترب ماشياً من الساقية نفسها، التي وصلتها رنا قبل ساعة، شرب الماء، أرتوى، إثناء نهوضه، سمع صوت الرجل كبير السن، من خلفه صوتاً دافئاً كأنّه جاء مع الرياح :

- لا تخف يا بني!

ذعر هليل، سدد المصباح الى وجهه، وجد رجلاً كبيراً، تفيض الرحمة على وجهه مبتسماً، بصوته هادئ النبرات:

- المرأة التي تبحث عنها، كانت قد غادرت الى مكانكم، في البيت المهجور.

بقي هليل صامتاً، أضاف الرجل:
- كانت عندي، آويتها، جعلتها ترتدي ثياباً محتشمة، ثم أخذتها بيدي الى بيتكم.
سأله هليل:
- متى جرى هذا الأمر؟
- قبل ساعة، أرتاحت في البيت لفترة قصيرة، أعرف ما جرى لكم، كيف ضعتم في الغابة؟ كيف غدر بكم المهربون؟ أعرف مجموعتكم، هي وأخت زوجها، كما أن معكم امرأة وزوجها ضرير وأنت.
توقف الرجل قليلاً:
- أنت الأنسان التي حدثتني عنكَ. تعال معي، في الصباح يمكنني أن أخذكما الى البيت المهجور.
- تأخذنا! لا أعلم ما تقصد،
- رنا جاءت تبحث عنك، أيقنتُ أنني قد ألتقي بك، أبقيتها في بيتي بأنتظار مجيئك.
سأل هليل:
- إذن نحن قريبون من البيت المهجور
- نعم، أنتما قريبان من البيت، لكنني سآخذكما إليه.
رنا التي هرولت بحثاً عن هليل قبل شروق الشمس، وصلت الى مكان الرجل كبير السن، بعد تعبٍ وخوفٍ من الغابة وخشيتها من الضياع فيها ثانية، لم تنس مكان البيت الذي يسكنه الرجل كبير السن، لمّا وصلت اليه، أخبرته عن سبب مجيئها، أبقاها في بيته، قال لها أطمأني، أن الرجل الذي تبحثين عنه سيأتي من هذا الطريق الذي جئت منه قبل ساعة. سأذهب لألتقيه.

20

أنزعج الرجل كبير السن من التقاط رنا للحقيبة والمسدس، عندما هربت من غرفة الاختطاف، يعود سبب انزعاجه الى أن الحقيبة مازالت بحوزتها، كانت قد فتشت محتوياتها، فوجدت صوراً لأفغان وعراقيين وايرانيين ضمن مجموعة تعمل في حقول قطف ثمار الزيتون، هناك صورة ظلت عالقة في ذهنها تجمع أحد الافراد الذين اختطفوها مع فتاة إيرانية، لم تركز على وجه الفتاة برغم إنها تضع قرطا على انفها ذكرها بفتاة رأتها، كانت تنام في وضع مشين، على ظهرها بملابس فاضحة تبتسم للمصور، وضع الرجل يده على صدرها.

لا تعرف رنا لماذا أوحت إليها الصورة، بأن صاحبتها قد تكون، هي نفسها الإيرانية ذات القرط على انفها التي جاءت مع الفتاة الأخرى ذات الوجه المستطيل؟ ضيّعت ملامحها ربما بسبب الإوشام التي تملأ جسدها، ثمة قرطان أحدهما على أنفها والآخر على صرتها، تشبه الى حد كبير الفتيات الايرانيات الهاربات من بلدهن، بسبب القيود المتشددة على النساء، بقيت هذه الصورة عند رنا، طوتها ووضعها بين طيات صدرها، باقي محتويات الحقيبة، موبايل وعلبة سجائر مالبورو وقداحة غازية مذهبة وصور آخرى، صور عمال وعاملات يعملون في حقل الزيتون.

سلمت رنا الحقيبة الى الرجل، بعد أن روت حكايتها له:

أبتسم لها:

ـ أعرف هؤلاء الاشخاص، يمكنني تسليمهم الحقيبة.

في تلك الإثناء أستيقظ هليل، فرح لوجود رنا على قيد الحياة، سمعها تتحدث الى الرجل، سمع بعض حكايتها، أقترب منهما، قال للرجل:
- يمكنك أن تأخذ هذه المحفظة لتسلمها لهم.
أحتضن هليل رنا وقبلها من خدها، شاكرا الله على سلامتها، جلس الاثنان قبالة الرجل.
فقال لهما:
- اذهبا فوراً الى البيت المهجور، أجلبا بقية المجموعة للسكن عندنا في هذا المبنى.
انطلقا يهرولان، بين حين وآخر، توقفه رنا من ذراعه، كي تستريح، تقبله على خده:
- أنا لا أصدق أنك تحملت كل هذه المخاطرة لكي تلحق بي.
ثم يعودان الى الهرولة باتجاه البيت الذي تسكنه المجموعة، لما وصلا الى مكان قريب منه، توقفت رنا مرة آخيرة، سحبته إليها من ذراعه، لثمته بقبلة. كانت هي التي تحضنه، ضغطت صدرها على صدره، تذكر عطر أحلام، كان نفس العطر الذي يشمه الآن، غير إنه أستغرب، أن تضمه رنا بهذه الحرارة والقوة، شعر أنها عطشى أيضا مثل أحلام، وهو مازال يرتشف شفتيها، تساءل عن زوجها، الا يكفيها؟ أنهت قبلتها وهي خجلة منه، غير مصدقة نفسها، بما فعلت:
- أعذرني، لا أعرف أعبّر عن مشاعري.
قال هليل في نفسه: "خوش تعبير"
بالرغم من أنه أستنكر تصرفها، لأنها سيدة متزوجة لا يجوز لها أن تقبله، ألا أن قولها بدد لديه غضب الاستنكار، ووجد من غير الملائم التعبير عن اعتراضه، فقالت لنفسها، بينما الخجل مازال يثير الإنفعالات

في نفسها، أرتسم على وجهها ويديها، " ماذا جرى لي؟ لماذا قبّلت الرجل الغريب؟"
بإرتباك، همست:
- الآن عرفت لماذا أحلام شديدة التعلق بك؟
ضحك هليل:
- أنها امرأة مسكينة، مرّت بحياة صعبة وهي لم تزل شابة جميلة.
مازالت مرتبكة:
- سأجعل عماد يوافق على زاوجك منها، بحضور الرجل كبير السن هذا، منعاً لكل الأقاويل التي يمكن أن تقال ولاسيما زوجة الضرير.
دخلا الى البيت المهجور، كان الصمت ثقيلاً، أوجس هليل شيئاً مريباً، أمسك ذراع رنا، طلب منها الإختباء في الحمام.
صعد السلم بخفةٍ ورشاقةٍ قاطعاً أنفاسه، لما وصل الى آخر الدرجات، جلس على الأربع، مد بوزه الى الغرفة التي تسكنها المجموعة، رآهم مقيدي الأيدي والأرجل، على فم كل واحد منهم لاصق، توقع أن خلف الباب، ثمة أحد الخاطفين، نهض مستعداً للمواجهة.
لما وقف عند الباب، أشارت له أحلام بعينيها، فهم أشارتها، أستحضر في ذهنه، كل المصائب التي مرّت به حياته، في الخدمة العسكرية، مثل نمر، أدار جسده خلف الباب، وجد أمامه أحد الخاطفين، جالساً على كرسي، يدخن سيجارة، وهو يضحك ساخراً، حزامه مفتوح، تجلس صفاء زوجة الضرير، عند قدميه، تدلك بهما، أنقض عليه هليل ممسكاً برقبته، ثم عالجه بضربة بقبضته على وجهه، أفقدته الوعي، نهضت صفاء، رتبت ملابسها، كان فخذاها مكشوفتين للرجل، ألتحقت بزوجها المتمدد على فراشه، وهو يبكي بدون صوت، رُبطت يداه أيضا الى الخلف، خرجت رنا من الحمام، تسلّقت السلم بسرعة جنونية، ألتحقت

بهليل، بعد أن سمعت صياح الرجل وهلعه، يحاول الآفلات من قبضته المحكمة، من دون فائدة.
قالت له:
- دعه لي، فانا أعرف كيف أتعامل مع هذه الاشكال القذرة.
ربطت يديه وقدميه باللاصق نفسه المطروح أرضاً، ساعدته بفك الأربطة من أقدام وأيادي المجموعة، وضعوا حقائبهم على ظهورهم، نزلوا السلم، يتقدمهم هليل ورنا، من الصعب أن يسيروا بسرعة، بسبب إيقاع مشي الضرير، لكنهم أبتعدوا عن البيت المهجور، وهم متوترون، وجهتهم المبنى الذي يسكنه الرجل.

21

عندما وصلوا الى مبناه، بعد ساعة من المشي المتعثر وسط الغابة، أستقبلهم الرجل، وهو يتلفع بعباءة مبطنة بالصوف عند الباب، تقف خلفه المرأة، ألقى عليهم السلام، صافحهم جميعاً واحداً بعد الآخر، لم يستغرب لما مدّ يده الى الضرير، فلم يمّد هذا يده إليه! تداركت زوجته صفاء الأمر، رفعت يد زوجها، صافح آخرهم هليل وقبله أحلام التي كان يقف خلفها، آثار ذلك إنتباه الرجل، شعر أن وقفة المرأة، فيها نوع من الغنج، علم بصلة الوّد بينهما.

سار يتقدّمهم الى الداخل، جلسوا في صالةٍ كبيرةٍ، على شكل دائرة، قدّمت المرأة لهم الماء، بعده الشاي والكعك المحلى بالتفاح، (تشتهر بصناعتها هذه المناطق القريبة من البحر)، تجلس أحلام بجانب هليل، لا يثير ذلك إنتباه عماد الذي كان يشعر بالخزي بسبب خطف زوجته رنا أمامه، كان يبرّر لنفسه، كلما تذكّر الحادثة، "أنهم يحملون الأسلحة، لا ينبغي مواجهة الأعزل لحامل السلاح"، غير أنه فوجئ بهروبها منهم، كلما أراد أن يسألها، كيف هربت، يشعر بالخزي، لكن إندفاع هليل في الليل، أخجله، واخزاه أكثر. فهو عندما يراه جالساً بجانب أخته، لا يجد غضاضة.

جلس الضرير بجانب زوجته آخر الديوان المفروش بالديباج والسجاد، لا يُسمع لهما صوت، زوجته تهمس بإذنه، لكن عيني صفاء تلاحقان تلك الجلسة الحميمية، جلسة هليل الى جانب أحلام، يتحدثان بمرحٍ وأنسجامٍ، أنهكت قلب صفاء الغيرة، لا تتمكن أن تبعد بصرها عن الفخذين

الملتصقين والهمسات المتبادلة، تكاد أحلام تبتلع شفتي هليل وهي تهمس، تؤشر بيدها على صور المناظر الطبيعية معلقة على الجدران.
ظلت زوجة الرجل واقفة عند مدخل الصالة، بانتظار أوامره، يجلس في صدر الديوان الدائري، يرى الجميع، يتابعهم بعيني إنسان دربته الحياة على الصمت والحكمة، راقب هليل وأحلام يتهامسان، عيونهما، باتجاه الصور في سقف الصالة الدائري.
كانت لدى أحلام تطلعات بالفن التشكيلي، قبل زواجها من يوسف، الذي قتل غدراً، قمع والدها، ذلك التطلع، لأنه كان ينظر الى الحياة من خلال المال فحسب، حرّضها والدها الثري على الدراسة في الجامعة التكنولوجية، معدلها يسمح لها بذلك، لم تعارض رغبته، لكنها، وجدت صعوبة، في التركيز على قوانين ورسومات هندسية لا تطيقها، لم تكملها بسبب كرهها الشديد لدراسة هندسة الآلات. جلست في البيت، بعد مقتل والدها أثناء حرب الكويت بصاروخ أخطأ هدفه، وقع على مجموعة من السيارات، من بينها سيارته، ثم ورثت مبلغاً كبيراً من المال، ومحلاً في السوق العربي.
بدأت حياتها العملية ببيع الملابس النسائية بالجملة، حتى جاء يوسف، التي تعلقت به، عندما صدم سيارتها ذات يوم، من جهة بابا السائق ورضت ساقها، أخذها الى المشفى بسرعةٍ، وجدت فيه شهامة ونبلاً، لم تر مثلها في الرجال الذين تعرفهم، خطبها من إخيها عماد الذي كان يريد أزاحتها من البيت بإي شكلٍ، خوفاً عليها من جنونها الذي يعرفه.
ينظر عماد لها بطرف عينه، لا يستطيع أن يفتح فمه، ليسأل رنا عن أسرار أحلام، يتصور، برغم الغيرة بينهما، أن أسرارهما كثيرة لم يطلع على أبسطها، رنا منذ الصباح وحتى هذه اللحظة، لا تتحدث معه، وجدت فجأة، أن ليس كل الرجال مثل زوجها، لاحظت في شخصية هليل، الذي

روى عطشها قبل ساعة، ما يمثل لها النموذج الحقيقي للرجال، بشخصيته القوية وغيرته وشهامته وقوته، أطلقت حسرة قوية وهي تنظر الى حماتها تتهامس معه، تتغنج بملاعب تعرف دروبها "النسنوسية"!
ضحكت رنا بخفوت، سمعها زوجها، خطر على بالها فجأة تعبير "النسنوسية"، قررت في نفسها، أن تسعى للتقريب بينهما، كما وعدت هليل، لأنها تأمل أن يكون قريبا منها ويعلّم زوجها عماد بعض الرجولة، لما سمع ضحكتها، لم تكترث لزوجها، حين سألها لردم هوة الصمت بينهما:
- لماذا ضحكتِ؟
ساخرة:
- أضحك على حظي المعّثر.
سمعوا الرجل كبير السن يخاطبهم:
- أنكم ربما تتساءلون، كيف أمكنني التحدث بلغتكم، وأنا في هذا البلد البعيد عن بلادكم، أنا إيها الأحبة في الله أبن بلدكم، هربت من حرب إيران، باتجاه أراضي هذا البلد، وصلت الى قرية صغيرة على حدودها، تم إيوائي على أفضل ما يكون من قبل عائلة محترمة.
لما وجد ربّ العائلة أمانتي ووثق بي، رأى همتي في العمل بحقول الزيتون والتفاح وغيرها من الفواكه، زوّجني أبنته، إنها هذه المرأة التي ترونها، صحيح أصبحت عجوزاً، لكنني تزوجتها وهي كبيرة السن، هذه رغبة والدها، ليس بمقدوري أن أرفضها وأتزوج واحدة من أخواتها الأصغر والأجمل منها، للعشرة حوبتها كما يقال، تعلمت لغتهم بسرعة، لما توفى والدها، ورثت زوجتي حقول الزيتون هذه التي رأيتموها، بنينا هذه المبنى، الذي يؤمه الكثير من الناس المساكين الفقراء.
توقف الرجل، وهو ينظر الى ردود أفعالهم.

بعد صمت، دخلت المرأة زوجة الرجل، تسير مسرعة تكاد تتعثر بمشيتها، همست بإذنه شيئاً، يدها على كتفه، أنتفض الرجل، واقفاً أعلن لهم بمتابعته الى السرداب، سار أمامهم بخطوات سريعة، قال لهم:
- جماعة الخطف جاءوا مسلحين هذه المرة الى المبنى.

22

دخل مجموعة العراقيين التائهين الى السرداب المظلم، أضاءه الرجل كبير السن بفانوس، علّقه بالسقف مرتبكاً، على عجلةٍ من أمره، مساحة السرداب بحدود مترين في ثلاثة، بمجرد أن كشف الضوء محتويات غرفة السرداب، أنفصل هليل عن أحلام، يقف لصقها وجها لوجه، كانا هما آخر الداخلين، يدها بيّده، لم تفارقه قط، الظلام يستر عليهما مداعباتهما وهي تقف الى الحائط.

برغم أجواء التوتر، كان هليل يشمّ عبيرها الآخّاذ وهو يضع أنفه وفمه عند رقبتها، يقفان الى يمين فتحة السرداب، تقفُ رنا وزوجها بجانبها من جهة اليمين، الى يسارها الضرير وزوجته، كشف الفانوس وقوفهم الى جدار واحد، أنفصل الآخرون، توزعوا الى الجدارين، سحبت صفاء يد زوجها الى الجدار المقابل لوقوف أحلام مع هليل، عماد لحق بزوجته التي مشت خطوات الى الجدار الثالث قبالة الفتحة.

صاروا كل أثنين الى جدار، يتفرسون بوجوه بعضهم البعض، وسط حالةٍ من التوتر النفسي والخوف من المجموعة المسلحة، رنا أقلهم توتراً لأن نفسيتها الرياضية، طبعّت على مواجهة أمور كهذه، هليل لم يكن خائفاً قط، بسبب أستعداده النفسي الدائم لخوض الصعاب، فيما تراقب صفاء تصرفات أحلام وهليل، تتمنى أن يقبض المسلحون على أحلام متلبسة بإي جرمٍ.

أحلام تمعن في أذى زوجة الضرير بمّد أصابعها الى هليل لتداعبهما، طالما بقيت أنظارها تتجه إليها، بمللٍ مقرفٍ، بينما رنا، تستعظم في

نفسها الغليان والغضب على وجه هليل، ترى من غير المناسب توبيخ أحلام، لتصوبها بنظراتٍ مُؤنْبِةٍ لمجرّد وقوفها بجانبه بهذا الشكل المثير.
لا أحد يعرف ما تضّمرهُ قلوب النساء ألا النساء أنفسهن، الضرير في وادٍ عميق لا يمكنه أن يستكنه صراع النظرات والمشاعر السوداوية بين زوجته وأحلام،
غير أن أحلام يبدو، تناست وجود أخيها، كأنمّا بوقوفها وهي مستثارة الى جانبه، همسها الدائم في إذن هليل، تريد أن تؤكد له أن هذا هو خيارها الآخير.
عماد يتصاغر، بسبب الخزي الذي لُحق به، من جراء سلبيته وجبنه، إزاء موقف خطف زوجته، لا يلتفت الى أحدٍ، لا يريد الآن ألا رضى زوجته رنا، يستعطف بنظراته المتوسلة إليها، صفحه، كلمّا مدّ يده الى أصابعها، مازال الغضب يستعِّر في نفسها، أفلتت أصابعها بعصبية، قبل لحظات، بطريقة أنتبهت إليها صفاء زوجة الضرير.
كتمت صفاء ضحكة كادت تطلقها، لولا الحياء والخوف من المسلحين في الأعلى، ترسل نظراتها الى أحلام لتخبرها بمهازل أخيها وزوجته، عندما أفلتت رنا أصابعها من قبضة زوجها، لم ينتبه الى ذلك أحد سواها، حتى النظرات اللمّاحة التي كانت توجهها لأحلام، ما كانت ترمي الى شيء محدد، لم تصب هدفها،
لأن أحلام في شغلٍ عنها، تصغي الى أنفاس هليل، الذي قرّب فمه من إذنها اليسرى، تتغنى بعزف أصابعه الدافئة على أوتار أصابعها المستسلمة له.
وسط هذا الجو المكهرّب، بين النساء الثلاثة. ردّ الضرير:
- الحمد لله رب العالمين.

قالها بصوتٍ هامس، وضعت أحلام سبابتها الى فمها وجحظت عيناها، غاضبة، صوبت نظرها الى صفاء زوجته، ضاغطةً على الحروف:
- اششش، يمعوّد لا تفضحنا.
وخزت هذه العبارة، قلب صفاء، أزداد غليانها، تتوق أن تقول لها "أنتبهي أنتِ الى نفسك، أنظري الى فضيحتكِ، كيف أصبحتِ مائعةً بين يدّي رجلٍ غريب، يداعبُ جسدكِ فلاتستحين، ناسية وجود أخيك".
كادت تقول ذلك لولا الاحتراز من الغمامة في الإعلى، في لحظات يتضاعف فيه توتر أعصابهم، بينما الرجال المسلحون، مازالوا يفتّشون بيت الرجل كبير السن غرفة غرفة، بحثاً عنهم.
أنتبه هليل الى الانفعالات على وجه صفاء، أبتسم لها ابتسامة ودٍّ، يعلم وقعها في نفسها، كي يداري الاحتدام الصاخب بينهما، طالباً منها، بعينيه، والإشارة بسباته الى عدم الرد على أحلام، كانت نظرته وأبتسامته، أبلغ رسالة لتسكت وتتجاوز عبارة أحلام.
فالأمر في الأعلى، خارج السرداب، بالغ الخطورة، مهما كانت أسلاف الرجل كبير السن التي ترجع الى بلادهم، فهو قد أصبح أبن هذا البلد، سيّفضل مصالحه الشخصية على مصلحتهم وحياتهم، إذا ما أستبّد به هؤلاء المجرمون وضغطوا عليه.
تعتقد صفاء أنها عاقلة بما يكفي، لا تريد أن تتسّبب بإحراج المجموعة، في موقفٍ كهذا، حتى لو ناصبتها العداء امرأة، لإسبابٍ واهيةٍ، مثل عداء أحلام لها.
بعد شعورهِ بتعبٍ هدّه، جلس الضرير ومعه زوجته، ترتدي تنورتها الزرقاء، مفتوحة الجانب من ساقها اليمنى، نظرت أحلام الى عيني هليل، لترى كيف ينظر الى جسد صفاء الممتلئ الجميل، وقد كشفت عن

ساقيها وفخذيها بطريقةٍ، بدت مثيرةً، تعبّر، حسب ظن أحلام، عن صفاقةٍ، وسلوك غير نافعٍ في إستمالة الرجل الذي تحبُه،
لكن عينيّ هليل، وقد لمح بسرعةٍ، بياض فخذ صفاء، سرعان ما التفت الى أحلام التي كانت تنظر اليه، حذّرته من التمادي مع هذه المرأة المتزوجة، فهي له، وهو لها، تعصف في قلبها مشاعر الحب بجنون، شبكت أصابعها بإصابعه، رداً على جلست صفاء، لتزيد في مطحنة المرأة.
لما رأت رنا، جلوس الضرير وزوجته، جلست هي أيضا، جلس زوجها عماد معها، لم يزل ينتظر أن تبصر إليه، لترحمه من وخز عذابه، عينا صفاء تركزان الى حركة أصابع الواقفين الوحيدين هليل وأحلام، وهما لا يريدان الجلوس مثل البقية، مضت دقائق، دّب التعب في جسد أحلام، همست بإذنه:
- لنجلس، فقد تعبتُ.
جلسا، ألتصقا ببعضهما، أبتسمت صفاء بسخريةٍ من جلستها، وهي تتكئ بكل جسمها على الرجل، نظرت صفاء الى أخيها، كي تحرّضه الى مراقبة أخته، لكن عماد في عالمٍ آخرٍ، من الصمت والذهول والغياب.
بعد أن تعبت أقدام الجالسين، قعدوا على مؤخراتهم، على التراب، تتجه أنظارهم الى فتحة السرداب، التي دبّت في أعلاه، بعض الحركة، توجس هليل ورنا شيئاً مريباً، نهضا، كانت المرأة زوجة الرجل، أطلّت بوجهها السمح الباسم، رطنت معهم، لم يفهموا عليها، حتى تداري خجلها، قالت لهم بالعربي:
- راهوا.. تألوا، الى الفوك (راحوا تعالوا الى فوق).

23

خرجت المجموعة من السرداب بعد إيعاز زوجة الرجل، تتقدمهم صفاء، سحبت يد زوجها الضرير، الذي صعد درجات السلم ببطءٍ شديد، بعدهما، رنا خلفها زوجها، بعدهما أحلام، خلفها هليل.

جلسوا في الصالة، خفّ التوتر والضغط النفسي الذي عانوه داخل السرداب، تتطلع عيونهم بحثاً عن الرجل، مرت دقائق، خرج إليهم من الرواق، جاءهم ينظف يديه بمنشفة صغيرة بيضاء.

جلس في مكانه المعتاد، في صدر الصالة، ظهر على وجهه بعض الاجهاد، خاطبهم:

- أمضيت ساعة صعبة، ومتعبة مع هؤلاء الطائشين.

نظر الرجل الى هليل ثم الى رنا:

- تم تسليمهم المحفظة والحقيبة التي فيها المسدس، هددّتهم إن عادوا الى مضايقتكم، أنتم بحمايتي، قلت لهم أن هؤلاء، أبناء بلدي الاصلي، وأنكم تعملون معي، ضللتم الطريق، فذهبتم الى البيت المهجور بالغلط.

ألتفت الجميع الى هليل، ينتظرون رداً، فهل ينوي الرجل كبير السن أستخدامهم، أم أنها حجة كي يبعد الطائشين عن ملاحقتهم كما يزعم؟ بماذا يمكن أن يستخدموا؟

أفاض الرجل في كلامه، بالتركيز على النيات الشريّرة والنفس الأمارة بالسوء، وفقدان الأنسان أيمانه بالله، وضعف الدين، لدى البعض من البشر.

خاطبه الضرير:

- تختلف درجة الإيمان من إنسان الى آخر، هناك من هو مقبل على الله، وهناك من هو مدبر.
حتى يقطع هليل الطريق على مماحكة، لا جدوى منها، تسائل:
- بماذا تفكر يا رجل؟ أشم رائحة ما، من كلامك، إخبرنا، أنت والسيدة حرمك، قد عرفتم ما هو هدف رحلتنا من بلدنا الى هنا؟ أوضح لنا كلامك.
أبتسم الرجل، أخذ ينظر الى المجموعة واحداً بعد الآخر،
رد:
- المسألة بسيطة، لا تحتاج الى كثير جهد لفهمها، أنكم جئتم، حتى تعبروا هذا البحر، أليس كذلك؟
أشار الى جهة البحر القريب من التلال المتاخمة للمبنى.
ثم سأل:
- كيف ستعبرونه؟ أنها عملية محفوفة بالمخاطر، ولكن لديّ الحل المناسب، أن تفضلتم وأصغيتم لي بارتياحٍ. أضاف:
- أعرف طرقاً آخرى، أقل خطراً يمكنكم أن تعبروا من خلالها البحر، من دون التعرض الى الغرق، بواسطة اليخوت التي تنقل السياح، والتجول في البحر للإستجمام، المبالغ التي يطلبونها أصحابها، كبيرة، يحتاج كل فردٍ، لكي يعبر نحو ألف وسبعمائة يورو، يعني 17 ورقة من فئة المائة يورو، لا أظنكم تحملون هكذا مبالغ.
توقف، نظر إليهم ثانية، لاحظهم يصغون بإنتباه شديد، أحلام وصفاء ورنا، يراقبن ردود أفعال هليل، أكمل:
- سيمكنني مساعدتكم في إدخار هكذا مبالغ لإجل رحلتكِم الطيبة الى العالم الآخر.
رد هليل:

- تساعدنا!! ما الذي يجب علينا فعله مقابل المساعدة مشكوراً عليها.
تنحنح الرجل:
- أنا لا أطلب منكم معجزة، أحب أن ألفت عنايتكم الى أن موسم القطاف على الإبواب، تساعدوننا في قطف ثمار الزيتون، مقابل سفركم، هذا كل ما لدي وأنتم مخيرون بالقبول أو الرفض.
غضبت رنا:
- لكن أشجار الغابة كثيفة، هل تريدنا أن نقطف كل أشجارها؟
أبتسم كبير السن:
- ليس كل الأشجار التي شاهدتموها عائدة لنا، هناك بحدود بضع مئات، أنتم عليكم قطف إلف شجرة فقط، بعدها تصعدون اليخت لترحلوا في أمان الله.
تساءلت أحلام:
- هل تعمل النساء؟
ضحك:
- النساء أكثر دقة من الرجال، في هكذا أعمال، إنكم إذا قطفتم كل يوم مئة شجرة، خلال عشرة أيام، ستتمّكنون من قطف الألف بسهولة، يمكن توزيع العمل بينكم.
في تلك الاثناء، تذكرت رنا الصور التي عثرت عليها في الحقيبة، ألتقطتها في غرفة الإختطاف، تذكّرت صورة الفتاة الإيرانية، في ذلك الوضع المشين، تبتسم للمصور، تحتفظ بها في طيّات صدرها، رأت في صور أخرى، نساءً ورجالاً يعملون بكدّ في جني الزيتون، هذه المعلومة لم تُخبر بها أحدُ لحد الآن، سألت:
-هل الأشجار كلها، مملوكة لكم؟
لاحظ هليل أن الرجل أظهر أرتباكا:

- أعرف.. أعرف ما يدور بخلدكم سيدتي، نعم، هؤلاء الطائشون لديهم أشجارهم أيضا، أستطاعوا في فترات سابقة، أستخدام أناس من جنسيات مختلفة، ولكن الأمر عندنا يختلف، أنهم يستثمرون النساء لإغراض غير أنسانية، أنا أعمل بالحلال.

أثارت أسئلة رنا أذهان المجموعة كلها، وخاصة هليل، أخذ يفكر بالطائشين الذين لديهم أشجاراً، يستغلون النساء، لا يعلم ما الذي تعرفه رنا ولا يعرفه هو، يجلس بجانب أحلام، التي بجانبها رنا، مدّ بوزه إليها، سألها:

- ماذا لديك، ما قصة سؤالك عن أشجار الآخرين؟ ما الذي تعرفينه؟

هامسة:

- قصة طويلة، سأخبركم بها بعد قليل، دعنا ننهي هذا النقاش، ثم نفكر ونقرر ماذا يجب أن نعمل.

راقب الرجل كبير السن الحوار الدائر بين رنا وهليل، أبتسم كالعادة.

خاطبه هليل:

- دعنا نناقش الأمر بيننا، سنعطيك الجواب بعد ساعةٍ أو ساعتين أو غداً.

24

بعد العشاء، لم تتفق المجموعة على ما يجب عمله في الغد، اتجهوا الى غرفة منامهم، غرفة واسعة فرشت على أرضيتها ستة أفرشة، من نوع الإسفنج المضغوط، على عددهم، كل فراشين معا، ثمة قنديل يضيء لهم الغرفة ذات النوافذ العليا المغلقة.

دخلوها، أخذت صفاء زوجها الضرير الى آخرها، قبالة منامهما، فراشا عماد وزجته، لما أستلقت رنا ببنطلونها، أبعدت فراش زوجها عنها بحدود شبرين.

بقيت صفاء جالسة على فراشها، بعد أن نام زوجها الضرير، تراقب الفراشين المعدين لأحلام وهليل، تنظر الى عماد أخيها، نظرات متبادلة بينه وفراش أحلام وهليل الملتصق ببعضهما،

فيها أشارة الى عماد، لعله يتدارك الأمر، ليعبّر عن غيرته، لكن أنى له ذلك، وهو يعاني الخذلان.

كان فراش هليل وأحلام الى الباب أقرب، وجهت رنا بصرها الى أحلام، بنظرات ذات معنى، هزّت رأسها، كأن تقول لها "أبعدي فراشك قليلاً عن فراش هليل"، ردّت أحلام على هزّ رأس رنا، بإبتسامة، ولإرضائها، أبعدت بقدمها فراشها الأسفنج، مسافة قدم عن فراش هليل، قام هذا بدوره بالحركة نفسها، وهو ينظر الى رنا وصفاء.

قبِلت رنا، بهذا الحل، لكن صفاء بقيتْ جالسة في مكانِها، لم تستلق مثل البقية، كانت تنظر الى فراش أحلام وهليل وهي تقول لنفسها: " لن أنام هذه الليلة حتى أرى الديك يكفش الدجاجة ".

يقرأ زوجها الضرير آيات قرآنية، قبل أن يخلّد الى النوم، حدقت صفاء الى عماد، الذي كان لا يشغل همه ما يشغلها، أرادت أن ينظر إليها نظرةٍ واحدةٍ، كي تخبره بخطأ وجود فراش أخته الى جانب فراش هليل، بقي هليل جالساً في وسط فراشه، ثم خاطبهم:

- يجب أن نقرر الآن، ماذا علينا أن نقول للرجل غداً، هل أنتم موافقون على عرضه؟

سألت صفاء:

- أنت ماذا تقول؟

ردّت رنا:

- ليس وقتها، الآن نريد أن ننام، أمضينا يوماً طويلاً شاقاً.

هزّت أحلام رأسها موافقة، فعل مثلها هليل، أستلقوا على أفرشتهم جميعا، ألا صفاء، وضعت راحة يدها تحت رأسها متكئاً على كوعها.

أنطلق شخير الرجل الضرير في صمت الغرفة، آثار شخيره ضحكات مكتومة بين الآخرين، علموا أن الضرير، أعطى إيعازا لنفسه حتى ينام، شاركتهم صفاء بالضحك، بالرغم من أن صوت الشخير يعود لزوجها.

كانت حقائب المجموعة قرب رؤوسهم، ترتدي كل من رنا وأحلام بنطلون الجينز، صفاء ترتدي تنورة ذات فتحة من ساقها، غير مستساغ عندهن النوم بملابسهن،

أمسكت أحلام ببنطلونها، تحت البطانية، خلعته، ثم فتحت أزرار قميصها الأزرق، نزعته، بقيت بثوب خفيف يصل الى الركبتين، بينما خلعت رنا بنطلونها الجينز، بقيت بثيابٍ خفيفةٍ، عملت ذلك تحت البطانية، فعلت مثلهما صفاء، بحركات تحت البطانية، توحي لمن يراها، صعوبة خلع تنورتها، مما يظهر ألتصاقها بشدة على مؤخرتها الكبيرة.

بقي الرجال يرتدون بناطيلهم، ناموا بها.

ضوء القنديل لا يشي بالكثير من رؤية تفاصيل بعضهم البعض، أستلقت أحلام على جانبها الإيمن بمواجهة هليل، تحدق به، نام على ظهره، يتأمل في السقف، تنظر إليه أحلام بإستغراقٍ وحب،
لما تأكدت، أن رنا كفّت عن المراقبة، وأدارت ظهرها للجميع، واضعة البطانية على وجهها، بعد أن نام زوجها، ألتفت هليل الى طريقة نظر أحلام إليه، تبتسم، لاحظ جنونها عبر تلك النظرات التي تقول فيها كل شيء، قال في نفسه "نحن ضيوف في هذا البيت يجب أن نحترم قدسيته":
همست له أحلام:
- كفّت صفاء عن مراقبتنا.
- أعرف، يجب أن نكون عقال وحبابين.
ضحك بصوتٍ خافتٍ.
تذكّرت أحلام ما جرى لهما في السرداب، كيف كان يشمّ جيدها ويمرّر شفتيه على خدها في الظلام، قبل أن يأتي الرجل صاحب البيت بالفانوس، ويعلقه في سقف السرداب، ذكّرته بذلك، لكنه لم يجب، أصطنع إغماض عينيه، وضع يده اليسرى تحت خده، فقالت له:
- هل نمت؟
فتح عينيه:
- كلا.. لم أنم.
غاضبة:
- صار ساعة أتحدث معك، ولم تجب؟
رد بهدوء وبصوتٍ خافت:
- أفكر بإقوال الرجل عن الإستخدام.

شعرت صفاء باليأس والتعب من المراقبة، وضعت رأسها على الوسادة، ترفع رنا البطانية عن وجهها، لتنظر الى أحلام وهليل، مازالا ينامان بالطريقة التي تركتهما.

بقيت كلمة هليل ترن في عقل أحلام "يجب أن نكون عقال وحبابين".

تذكرت إنها في يوم، من أيام دراستها بالجامعة التكنولوجية في السنة الأولى، قام أحد الزملاء ممن كان يحُبّها بجنون، يتطيّر كلمّا مرّت بجانبه، كان معجباً بها إيما أعجاب، وهي تغلق عليه كل الطرق لعدم الوصول الى قلبها.

هذا الزميل، في ساعةٍ مجنونةٍ، باغتها، سحبها من يدها، الى حمام الطالبات، قبيل نهاية الدوام، هناك بدأ يلثمها قبلاً، برغم المفاجأة، نسيت كيف تقاومه، لا تعرف كيف أستجابت الى شفتيه، أرتخت بيّن يديه، تصاعدت لديها وتائر الحمق.

كادت تلتهمه، لولا أنها، وجدت حركة غير طبيعية في احدى مراحيض الحمام، عرفت أن زميلة كانت موجودة بداخله، تتلصص عليهما، لا تعلم الآن لماذا كانت مستسلمة الى الزميل المحب.

تذكرت هذه الحادثة، "هل تمر بالحالة نفسها الآن؟" ثمة أحاسيس دافئة تغمرها، بقرب الرجل الذي تعشقه، الذي قبلها في البيت المهجور تحت السلم، ولم تمانع، قبلها في الأعلى، حتى كادت تقع أرضاً من جمال مثابرة اللحظات التي عاشتها معه، لتمسك جوهرها المخبوء في قهرها اليومي، قبلة أعلى السلم، قبيل دخولهما الغرفة، تصورتها، لن تتكرر، لإنها تضمر تلقائية لاذعة، حريفة، حررت جسدها من القيود، وذهبت بها الى تلك المساحات البدائية للمشاعر ، رمت بها بتلقائية العذوبة المفقودة، في حياتها المتصحرة أبدا، تريد أن تعيدها الآن، إنها لاتريد إستخدام حيل النساء المكررة الغبية، لكنها مضطرة في زمنها الصعب

هذا أن تفعل ما تشاء، مدّت يدّها الى خده، أبتسم لها، لا يمكن لرنا وصفاء رؤية يدها المدودة الى هليل، أبتسم لها مع الغضب، همس لها:
- يجب أن نكون عقال.
ضربته بظاهر يدها على أنفه.
أدارت ظهرها إليه، كاشفة البطانية عن جسدها المكتنز، أدار هليل ظهره إليها أيضاً، ولم ير الجسد شبه العاري بجانبه.
في تلك الاثناء، دخل الرجل الى الغرفة، لاحظ أن الجميع يغطّون في النوم، أنتبهت أحلام الى جسدها المكشوف الى جهة هليل، سحبت البطانية بسرعةٍ لتغطي جسمها، أظهرت للرجل أستغراقها بالنوم، علم هليل بدخول الرجل، فقال في نفسه "ربما جاء ليتأكد أن كل شيء يجري طبيعياً، ولم يحصل ما يمكن أن يُفسد المكان ".
لكن ما جرى في أعماق الليل، قرب الرابعة فجراً له حديث آخر.

25

في الساعة الرابعة فجراً، طلب الضرير من زوجته صفاء، أن تأخذه الى دورة المياه، أستيقظت بصعوبةٍ، من حلمٍ لذيذٍ، جلست على ركبتيها، لا تريد أن ترتدي ملابسها، لإنها ستعود إليها بعد قليل، كان في بيتها ببغداد شرشفاً، تتلفع به حين تذهب من فراشها الى الحمام، هنا البطانية أفضل ما تتستّر بها، بالرغم من أن الجميع يغّطُ في النوم العميق.
نظرت الى جهة هليل وأحلام، ظنّت إنها لم تعثر عليهما، شاهدت مكان رنا وعماد، التفّت ذراعه حول خصرها، أزيحت الغطاء عنها قليلا،
لفت صفاء البطانية حول جسدها، أمسكت بها بيدها اليسرى وبالآخرى أمسكت يد زوجها، أخذته باتجاه الباب المؤدي الى الحمام، تغلي بحثاً عن العاشقين، عندما أقتربت كثيراً من منامِهما، وجدتهما كل واحد ينام على فراشه، مرّت بجانب هليل، ضربت قدميه بقدمها حيث تنتعل خفاً من الإسفنج، فزت أحلام فجأة من النوم، جلست على مقعدها، مذعورة، لأن الضربة جاءت بها، قالت لها أحلام بعصبية:
- شبيك ما تشوفين عابت هالوجه.
سمع صوتها هليل، أخرج رأسه من البطانية، قبل أن تعود أحلام الى مكانها، قررت، بدلاً من وضع رأسها على وسادتها أن تغيّر منامها، ولكن قبل أن تفعل ذلك أنحرفت قليلاً بجسدها، فوضعته بجانب رأس هليل، مدّت يدها الى صدره ومسحته الى وسطه، أزاحها بهدوء شديد حتى لا يكسر خاطرها، حين أُبعدت يدها، دمدمت بصوتٍ خافتٍ، ثم وضعت رأسها على وسادتها.

أن الشيء الذي سهّدها، وجدت في منام هليل، ما يؤكد، أنه يريدها ويحبها، صحيح أن عمره فوق الخمسين، أكبر منها بعشر سنوات، غير إنها أكتشفت أنه مازال يتمتع بالصحة والعافية، كأنه في منتصف العشرين أو الثلاثين من عمره.

بقيت تراقب صفاء التي أخذت زوجها الى الحمام، تتلفع بالبطانية تستر عريها، فكرت أنها ما دامت قد أيقظتها من النوم، ستبقى ساهرة حتى تأتي ثانية، "لتثأر منها أثناء عودتها، بسحب البطانية عن جسدها،" أستولت عليها هذه الفكرة، طردت النوم من عينيها، أستبدلت مكان رأسها بقدميها، بين حين وآخر، ترفع رأسها بإتجاه الممر.

في تلك الإثناء التي وصلت بها صفاء مع زوجها الى الحمام، عند وقوفها بالإنتظار بجانب الباب، لاحظت شيئاً مريباً، أنتقل رجل من غرفةٍ الى آخرى، ظلت عيناها تراقبان الغرفة التي دخلها الرجل، خواطرها بدأت تدفعها لترك مكانها، حتى تذهب الى الغرفة، لتشاهد ما يحصل فيها، ضربات قلبها تسارعت، هذا التسارع يمنعها من الإندفاع، يشكل عندها فالاً سيئاً، غالبا ما كانت تلغي خواطرها وفضولها بسببه،

بقيت في مكانها، عيناها تراقبان الغرفتين، تلك التي خرج منها الرجل، الى الآخرى التي دخل إليها.

بعد قليل، سمعت ضحكة نسائية من الغرفة التي دخلها الرجل، ثم كُتِمَ صوتها، يبدو أن الأمر، كما تخيّلت صفاء، أن الرجل، وضع يده مباشرة على فمها، لما هدأت ضربات قلبها، أخذت تمشي على أطراف أصابعها الى الغرفة الغامضة، حابسة أنفاسها، مشت نصف المسافة، غير إنها سمعت صوت زوجها من خلفها:

- وين أنتِ يا صفاء؟

عادت راكضة إليه على أصابعها، أمسكت بيده.

- أين أنتِ، كدت أقع بصخرة مرمية بجانب الباب؟
نظرت الى الخلف، لم تجد الصخرة، أرادت أن تطيل محادثتها مع زوجها بغية أكتشاف أسرار تلك الغرفة، سألته:
- إي صخرة، ليس هناك صخرة؟
أوقفته في مكانه:
- أنتظرني لحظة، دعني أرى الصخرة.
مازالت تساورها الشكوك، في معرفة أجواء الغرفة التي دخل إليها الرجل، تنظر الى الخلف، كل بضع ثوان، في هذا الظلام الكثيف، هناك مرمرة مطروحة أرضا بجانب باب الحمام.
عادت إليه، أمسكت يده اليسرى هذه المرة، لأنها تريد في العودة، أن تمر على منام العاشقين، أقتادته الى الغرفة التي ينامون فيها، تعلم هي أنها ستمر بجانب قدمي أحلام هذه المرة، حفظت مكانها، لكنها لن تفعل شيئاً ضدها، مثلما فعلت قبل قليل، ضربت قدمي العاشقة بدلاً من هليل.
سارت تمشي على إيقاع خطوات زوجها البطيئة، كم تكره روائحه، لا تطيقها، تكره صوت أنفاسه يتغلغل الى طبلة إذنها اليسرى، لا تستطيع أن تعمل شيئاً لمنعها، هذه هي إرادة الله، ينبغي أن تقبل بها، ما أن وصلا الى منام هليل وأحلام، حتى ألقت نظرة حاقدة الى أحلام، قبل أن تعبرهما صفاء بخطوتين، أخرجت أحلام يدها من بطانيتها، حيث وضعت رأسها في مكان القدمين، سحبت ذيل البطانية بقوة، وقعت عن جسد صفاء، لم تكن ترّتدي ألا النزر اليسيّر من ملابسها، ثوباً شفافاً فوق المؤخرة، أصيبت بالذعر والمفاجأة، كيف أستطاعت أحلام أن تكمن لها، تركت يد زوجها:
- قف هنا لحظة، لقد وقعت البطانية.

سارت الى أحلام التي كانت قد عادت الى وسادتها، ضربتها بقدمها ضربةً قويةً ندّ عنها صوت الآه، أستيقظ هليل:

- ماذا بكِ؟

لمح صفاء تضع البطانية على جسدها، تسير مع الضرير الى مكانِهما. لم تخبر صفاء زوجها بما فعلت، لأنها تعلم أنه سيوّبخها، هي مذنبة في الأولى حين ضربت أحلام بالخطأ، ومذنبة في الثانية حين ردّت على نزع إحرامها.

نامت صفاء تغلي، تتقلّب ساعة على فراشها، تريد أن تفسّر حركة الرجل من غرفةٍ الى آخرى، صوت ضحك المرأة التي كُتِمَ بسرعةٍ.

26

في صباح اليوم التالي، أستيقظوا فرادا، في أوقات متفاوتة، أستيقظ الضرير في الصباح الباكر، توضأ من دون مساعدة زوجته الغارقة بإحلامِها اللذيذة، صلى ركعتي الصبح، جلس في مكانه يتمّتم.
أستيقظ بعدهُ هليل بسبب اعتيادهِ منذ أيّام الخدمة العسكرية، عبرَ عن حاجتهِ الأنسانية بالمرحاض، أغتسل وجهه، ألقى نظرة على النائمين، أكتشف أن الضرير يجلس لوحده على فراشه، جلس هليل متكئاً الى الجدار، يراقب أحلام النائمة على بطنها، نصف جسدها مغطى بالبطانية، نظر الى رنا وزوجها، تنام رنا بينما ظهرت ركبتاها الطويلتان الى الأعلى مشرعتين، بجانبها عماد كوّر جسده مثل طفلٍ، ركبتاه الى صدرهِ يضعُ بيّنهما يديه، تنام صفاء على جنبها الإيسر، عكس أتجاه وجه زوجها، الجالس ثابت الحركة.
قرر هليل، بعد تفكير عميق، أنه يجب أن يخضع الى إرادة الرجل كبير السن، في الإستخدام لجني الزيتون، وجد من الضروري أن تعمل النساء معهم، لا يكفي عدد الرجال لقطف ثمار مئة شجرة في اليوم.
لما أستيقظوا كلهم بعد العاشرة جلسوا الى مائدة الفطور، أخبرهم بفكرته، عارضته أحلام:
- لدينا ما يكفي من المال، فلا موجب للعمل.
عارضها عماد:
- من أين لنا المال؟ نعمل في الزيتون أفضل.

تضع أحلام كل مالها عنده، يرى عماد أن له حرية التصرف به، مادامت قد سلمته له، أتفقت رنا مع زوجها على العمل، فكّرت صفاء، أنه لابد من العمل، مغامرة تمضيها في حياتها التي لا معنى لها، لعلها بين أشجار الزيتون تحظى بوقتٍ طيبٍ، عبّرت عن فرحتها بذلك:

- أشجار الزيتون فيها بركة (ضغطت على فخذ زوجها). أضافت:

- ذكرها القرآن الكريم، التين والزيتون.

لم يستجب زوجها لتحريضها، تعاظم فرحها لأنها تجد في فرصة العمل مساحة واسعة لحريتها، حتى تغيظ أحلام، خصوصاً ثمة بوادر خلاف بينها وهليل، لفظت، وهي تشددّ على عبارتِها:

- أنا اؤيد ما ذهب إليه "عزيزنا" هليل.

شددّت على كلمة "عزيزنا" وأطالت بحرفي "نا".

رفع زوجها رأسه الى الأعلى:

- اللهم سترك وعفوك.

علمت صفاء أن دعاء زوجها موجه لها،

قالت أحلام:

- لا أعتقد أن "عزيزنا" يقبل أن تتمرّغ النساء بالوحل والطين وتُغرز أصابعها الحلوة بالأشواك.

مدت أصابعها الى الأعلى، تتباهى بها، أمام أنظار صفاء والحاضرين،

ردّ الضرير:

- أنا أيضا اؤيدك عزيزي هليل، سأعمل ما بوسعي معكم.

ضحك هليل:

- أنت خارج الخدمة عزيزي أبو الوْليِّد.

ردّت صفاء على هليل بغضب:

- أرجوك.. أبو أسامة مو أبو الوْليِّد.

قالت أحلام وهي تناكد غريمتها:
- لماذا سيكون أبو الوْليّد خارج الخدمة؟
قالت صفاء بعصبية:
- أبو أسامة رجاء، مو أبو ... الوْليّد
ضحكت رنا:
- ما الفرق بينهما، أسامة أو الوْليّد، أنا يعجبني ما أطلقه عزيزنا هليل على أبي الوْليّد.
مازالت صفاء متعصبة تحاول الرد على المرأتين:
- عيني الأسماء حسب مسمياتها، وليس بما يعجبني، وما لا يعجبني، أم الاختطاف؟
غمزت لها صفاء، كان لديها كلام آخر تخبئه عنها، لا تريد قوله. " أعرف ماذا فعلوا بكِ ياعاهرة؟ معقولة ثلاثة رجال مع امرأة يتركونها لتهرب منهم، من دون أن يفعلوا بها شيئاً، وين صايرة هاي حتى بالافلام الهندية ما تصير "
تضاحكت أحلام:
- لماذا سيكون خارج الخدمة أبو الوْليّد، يمكنه أن يقدم لنا الماء على الاقل.
ضحك الرجل الضرير، مسك فخذ زوجته الجالسة بجانبه:
- لا تتعصبي عزيزتي، أبو الوْليّد أو أبو أسامة، ما الفرق، نفس الشيء.
التفتت إليه غاضبة:
- أسامة حبيبي أبني وليس وْليّد، أليس هذا هو أسم أبننا الذاهبين إليه في المانيا، لمّا رمانا الدهر حتى نشوف اليسوة والمايسوه.
خاطبهم هليل:
- دعونا من هذا النقاش، هل تقبلون بالعمل ام لا؟

ردت أحلام:
- أنا من ناحيتي لن أعمل، أخاف على بشرتي وأصابعي، أخاف على نفسي من الضياع، بعدني شابة صغيرة.
قالتها ضاحكة، أغاظت هذه الجملة صفاء كثيراً، فوجّهت صفاء كلامها الى عماد:
- أنا أعرف أن أمر أختك بيّدك، ماذا تقول أنت؟
ردّت رنا عليها:
- عيني أم الوْليّد ما يصير تخاطبين زوجي بهذا الشكل؟
غضبت صفاء أكثر:
- شلون يعني أقدم له عريضة حتى أتكلم معه.
قال عماد بصوتٍ خافتٍ وهو يلوك بالكلمات:
- أمر أختي بيّدها، هي بالغة لا تحتاج الى من يوجهها، عقلها هو الذي يرشدها، أفضّل أن تعمل معنا أختي الحبابة.
نظر إليها بتركيز، لم ينتبه الى أنها تضع فخذها على فخذ هليل.
فكرت صفاء: " خوش ظل بهاي العقلية الحمارية اخوية".
خاطبهم هليل متذمراً:
- لنر الأشجار، وبعدها نفكر كيف نقسم العمل بيننا.
دخل الرجل كبير السن حاملاً عدة جني الثمار.
- صباح الخير، هل أنتم مستعدون للعمل؟

27

ساروا خلف الرجل، واحداً بعد الآخر، يحملون الأمشاط الحديدية الخاصة بجني الزيتون، تسرّبت خيوط الشمس الى الغابة، أضاءت أشجارها بإعمدة نورانية مائلة من الذرات الصفر، تتخلل أغصانها وجذوع أشجارها، شمّوا روائح عبقة مثيرة، تختلط برائحة التراب والعشب، الغابة رطبة، ارتدوا جميعا جزمات طويلة ملونة لهذا الغرض.
تعشق أحلام الطبيعية، تقدمت هليل بخطوتين، تسير مندفعة، تكاد تصل الى الرجل كبير السن، الذي بَعُدَ عنهم، بخطواتٍ عشر، يحمل مثلهم بعض الأدوات، أثار أندفاع أحلام الى الإمام، خواطر صفاء، التي ترى أن أحلام تكذب، عندما رفضت المشاركة في العمل، زعمت أنها تخاف على بشرتها واصابعها من غرز الاشواك، فكرت "تكذب هذه الكلبة، تريد كلب مثلها يرويها، ما شبعت بالعراق تريد تروح لاوروبا حتى تشبع أكثر".
قال الرجل كبير السن لهم:
- على كل واحد منكم أن يرتدي قفازاً، فمن لم يعمل بالمشط الحديدي، عليه بحلب الأغصان بيّن يديّه، من دون تكسيرها رجاءً.
وأضاف: أهم فقرة، يجب أن تنتبهوا لها، عدم تكسير الأغصان، عمل الأمشاط للإغصان المرتفعة.
حمل الأمشاط هليل، حمل عماد بطارية تشغّل أمشاط كهربائية، حملت صفاء ورنا الأبسطة البلاستيكية التي تفرش تحت الأشجار حين يسقط

الزيتون. أما الضرير فقد ربط بحبل عقد بحزام عماد الذي كان يسير أمامه ببطء.

أرتدى الجميع ملابس خشنة، تشبه ملابس عمال المصانع، عبارة عن قطعة واحدة زرقاء اللون، أخفت الملابس أجساد النساء وتكويراتهن البديعة، يسيرون رتلاً واحداً، يتمّعن هليل بطريقة مشي أحلام أمامه، التي لم تستطع البدلة محو جمال جسدها بوركيها الراقصتين، تعلم أنه يسير خلفها يراقبها، لا تبعد طريقة مشيتها عن إهتمام صفاء، مرات تقلدها ساخرة بلوي عجيزتها أمام عماد الصامت الحزين، الذي يراقب خطوات زوجته رنا الجادة الحازمة، التي تسير أمام صفاء.

لما وصلوا الى المكان المطلوب، حيث الأشجار ذات الأحمال الكثيفة بثمر الزيتون الأسود الناضج. توقف الرجل، تجمعوا حوله، وزّع عليهم المهام، علّمهم طريقة سحب الأمشاط من الأعلى الى الأسفل، من دون إيذاء الأغصان، تحدّث معهم بهدوءٍ وخبرة إنسان، أمضى نصف عمره في غابة الزيتون.

الجميع ينظرون الى كل الجهات المتشابهة في الغابة مترامية الإطراف، في داخل كل واحد منهم، رغبة تحلّق بها روحه بعيداً عن الإشجار والزيتون، لا يمكن للرجل أن يدركها.

أتفق معهم، كل شخصين على شجرةٍ، تم توزيعهم بالشكل التالي: هليل وأحلام على شجرة، عماد ورنا على شجرة، صفاء بقيت لوحدها،

بيّن الرجل:

- أنا وهي على شجرة.

أنتبهت أحلام الى غمز الرجل الى صفاء، وأختيارها لتكون معه في جني الزيتون. رحبّت أحلام في داخلها بالفكرة، فكرت: "بلكت ترفع عينها هذه الحرباء عني، بلكت تحقق ما تريد وتتمنى نفسها ".

قال الرجل:
- يجلس الضرير في هذا المكان الدائري الذي تتفرع منه الأشجار، بجانب صناديق سيأتي بها أحد العاملين.
وقال لهم ضاحكا:
- أنا أعمل اليوم فقط، ولن أساعدكم بعدها، أريد أن أعلّمكم الطريقة الأمثل لجني الثمار.
يتحدّث الى الجميع، ولم يرفع عينيه عن صفاء، التي شعرت بأن رجلاً في هذا العالم، سيكون معها، حتى لو كان غريبا مسناً: " أحسن من ماكو" قالتها في نفسها بغبطةٍ، وهي تبتسم الى أحلام، التي ردّت عليها بابتسامة صفراء، بعدها عقدت ما بين حاجبيها بسرعة.
تراقب رنا الحوار الدامي بالنظرات بين صفاء وأحلام، أبتسمت رنا لإبتسامة أحلام الصفراء، تعرف دواخلها، تريد أحلام من الكل أن يكفّوا عن متابعة حياتها الخاصة، وهي تتشكل بمشاعر دافئة مع هليل.
اتجهوا الى العمل، أخذوا يراقبون الرجل، كيف يضع المشط الحديدي، يتعشق بالأغصان، يسحبه ببطء وهدوء، فُرش تحت الشجرة، بساط بلاستيكي، يتقاطر عليه الزيتون ولا يسقط على الإرض الطينية.
أول من ذاق طعم حبة الزيتون هو هليل.
صاحت به أحلام:
- لا تضعها في فمك، نظفّها أولا.
نظر هليل الى كل الجهات، بحثاً عن ساقية، لم ير ماءً لغسل الزيتون.
- كنا نأكل لحم الأرزاق أيام الخدمة العسكرية، في جبهة الحرب، يخالطه التراب والغبار والدخان.
همس بإذنها:
- أتخافين علي؟

تذكرت جحوده ليلة البارحة، ردّت:
- ولو ما تستاهل أخاف عليك؟
ثم أبتسمت، نظرت إليه بحبٍ وغنجٍ، لم ير مثل جمالها من قبل.
لا أحد كان يتابعهما سوى صفاء: "أروي هذه الكلبة شمالك يهليل، ما تشوفها تحوم عليك" قالت للرجل، وهي تنظر الى أحلام:
- هل يمكننا أكل بعض الزيتون بعد سقوطه؟
- يمكن ذلك، ولكن بعد غسله.
جاء شاب يحمل الصناديق، وضعها بجانب الضرير، لاحظت رنا أن هذا الشاب سبق لها أن رأته، توقعت أنه صاحب صورة معينة تخبئها في مكان ما من حقيبتها.

28

أنسحبوا من الغابة، يسيرون بخطى ثقيلةٍ بإتجاه البيت، يتقدمهم الرجل كبير السن.
أنهكهم الجهد الذي بذلوه في جني الزيتون، تسير خلفه بخطوة واحدة صفاء زوجة الضرير، التي سمعت كلاماً كثيراً من الرجل، لم تصده أو تتبّرم منه، لإنها كانت بحاجةٍ الى ما يرضي أناها، ترى نفسها مثل الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن في الحروب العبثية أو في الحرب الطائفية، تشعر بنقصٍ حنانٍ فادحٍ.
بعدهما تسير رنا وزوجها عماد الذي أمسك بذراعها، ليسحبها إليه، محاولاً استرضاءها طوال الطريق بمداعبات باردة، بعدهما تسير أحلام التي مازالت تنظر الى لوحة الله المذهلة، أثناء غروب الشمس، شعاعها يتخلل جذوع الأشجار، تنسحب خلف التلال البعيدة، تتلوى أحلام بمشيتها، أمام هليل الذي أمسك بالضرير يقوده بخطى بطيئة.
لما وصلوا الى البيت، ألقى كل واحدٍ منهم جسده المتهالك على فراشه، لم يعتادوا على العمل عشر ساعات متتالية، تشنّجت عضلات سيقانهم وظهورهم.
لما ألقت أحلام بجسدها، أطلقت صوتها " آي آي آي "، أوصل هليل الضرير الى فراشه، قبل أن يتمددّ عليه، مدّ يده الى فراش زوجته صفاء، لم يجدها، ندّت ضحكة من رنا.
بقي الضرير جالساً في مكانه، لم يبذّل جهداً كبيراً في العمل مثل الآخرين، لا يرغب أن يسأل أحداً عن سببِ إختفاء صفاء، فهي بعد

مصاحبة الرجل لساعاتٍ، لا أحد يعلم ماذا كان يقول لها، طوال تلك المدة التي أنفرد معها، عندما وصلوا الى البيت، أختفت معه في الرواق، الذي ينبثق من صالة منامهم.

خاطبهم هليل:

-نتعشى قبل أن ننام، لا تستلموا الى النوم،

عيناه بقيتا تنظران الى الرواق، بعد إختفاء صفاء، خلف الرجل صاحب البيت، جالساً في مكانه يراقب، جلست أحلام على فراشها مثله بجانبه، تنظر الى الرواق أيضا، لا تود أن تقول شيئاً، فقد سمعت اليوم الكثير من تغريدات الحب، يمنعها التعب من الكلام، بالرغم من أن لديها طاقة للكثير مما تريد قوله الى هليل، غير أن سيماء وجهه الجادة، وتركيز نظره الى الرواق، وهو ينتظر أطلالة صفاء، بعد غيابها خلف الرجل، منعها من قول إي شيء.

تبادلها رنا نظرات، فيها معانٍ كثيرةٍ مع إبتسامة، علمت رنا بالإفكار التي تدور في رأس أحلام، لا أحد يعلم بما تفكر به النساء في مواقف مثل هذه، ذلك لأن ممرات وعيهن عميقة.

يوّد هليل، أن يسأل أحلام عن السبب، الذي جعل صفاء تسير خلف الرجل، الى الرواق المظلم، لكن طويته السليمة تمنعه من السؤال، ومقولة "أعط صاحبك سبعين عذراً قبل أن تعاتبه"، ماثلة في رأسه.

غير أنه يراقب بشغفٍ مثل رنا وأحلام، تثير لديه تلك الإبتسامات المتبادلة بين المرأتين، متعة بالغة في إكتشاف خواص النساء، يعلم بمضمونِها، وأسبابِها، فلا يبذلُ جهداً لتفسير معناها، إنه الحقد والحسد والغيرة ضد المرأة.

جعل التعب في جسد الضرير، أن يكّف عن متابعة سبب غياب زوجته، يعلم أنها قد تقضي حاجتها، أو ذهبت لتغسل وجهها ويديها وقدميها، بسبب هوسها بالنظافة.
لا يلتفت عماد الى إنشغال المرأتين بصفاء الغائبة، ولا ينشغل بهليل الذي لا يعلم بماذا يتحدث مع أخته، فهو في عالمٍ، تتصارع فيه، مشاعر الخذلان والخزي، أن عدم قدرته على مراقبة تفاصيل الناس، جعلته، أمام نفسه، على الاقل، يبدو أبلهاً وساذجاً.
أحلام تريد أن تستلقي على فراشها، لكن أنشغالها بقصة إختفاء صفاء، منعت نفسها من ذلك، قصة طازجة ليس فيها من الغموض ما يشوش ذهنها، إنها في حالة فضولٍ شديدٍ لكي تمعن في مناكفة غريمتها الجميلة، هو الفضول نفسه لدى رنا التي تشعر أن صفاء تكرهها، وتضمّر شيئاً ضدها، بسبب تلك الليلة التي تم فيها خطفها، " تتصور عني أمور مشينة قد جرت لي، من إنتهاك لجسدي، لا تعلم هذه المعتوهة إنني اضطررت الى ذلك حباً بالحياة، كان يمكنني منعه، غير أن الحياة أجمل ".
كثيراً ما كانت صفاء ترمقها محترزة، لفضحها بإية لحظةً، "حتى لو كانت نظراتها لاسعة، أنى لصفاء أن تعرف حقيقة ما جرى لي في كوخ الأختطاف، ما دامت، لم أبح بما حدث لإي مخلوق، وكيف تمكنتُ من الهروب من قبضتهم، لم أقل شيئاً حتى الى أقرب الناس اليّ أحلام"
نظرات صفاء في الإمس وصباح اليوم أزعجتها، كثيراً، يبدو عليها إنها غير مقتنعة أبدا بهروبها، في ظنها أن ثلاثة شبان أقوياء، لا يمكن لها الإفلات منهم، مهما كانت لديها من القدرة واللياقة وقوة العضلات والذكاء.
تنساب هذه الخواطر في عقل رنا، كلما وجدت صفاء تنظر إليها بريبةٍ وأحتراز، لسان حال صفاء يقول "أنا أعرف البير وغطاه يا رناوي، فلا

تكوني ضدي مع حماتك"، وجدت رنا الآن الفرصة سانحة لها، تنتظرها الآن، لكي ترد على نظراتها الموخزة.
بدا عماد زوجها يشخر من التعب، لاحظت أن الضرير كفّ عن متابعة زوجته، أستسلم الى خدر النوم، يطلق معزوفة الشخير، بقي هليل الذي جلس مسترخياً، يريد أن يعرف أيضا قصة أختفاء صفاء في الرواق المظلم، ولكنه ما يني، يفكر بالسبعين عذرا.
مازالت أحلام تراقب رنا، يتبادلن الإشارات والابتسامات، حتى نفد صبر رنا، أشارت الى أحلام، وهي تنهض، إشارة فيها معانٍ، إنها غير قادرة على البقاء في حالة أنتظار ما تسفر عنه اللحظات المقبلة، بيّنت لها عبر الإشارة "أنني سأذهب الى الرواق لأرى ماذا يجري هناك". أيدّتها أحلام، بهزّ رأسها.
سارت رنا، ألقت نظرة واضحة الى أحلام والى هليل فيها تصميم، دخلت بخطوات واثقة، بطولها الفارع الى ظلام الرواق.

29

دخلت رنا الى الرواق المظلِّم، تسير على أطراف أصابعها، بحثاً عن غرفة معينة، تتوقع أن تكون صفاء فيها، مع الرجل كبير السن، من بيّن كل الغرف العديدة التي يحتويها الرواق، إذ كلما وصلت الى غرفةٍ، بابها مفتوح، تتخطاها، لظنها فارغة.

وصلت الى نهاية الرواق، آخر غرفةٍ، كانت مغلقةً، يتسرّب ضوء الفانوس من تحت بابها، بقيت واقفة في مكانِها، هذه هي الغرفة الوحيدة التي يضيئها الفانوس، هذه بغيتها، أرتخت عضلات ساقيها، بدأ قلبها تتسارع نبضاته، مثلما توقعت، فقد سمعت صوتاً رجالياً يتحدث بهمسٍ، سمعته يقول لها:

- أتشعرين بالتشنّج في هذا المكان أم في هذا؟

أجابت المرأة: أعلى أعلى.. قدماي ليس فيهما إي شيء، أصعد الى الأعلى.

ترتجف يد رنا، قبل أن تفتح الباب، تخشى من ردود فعل عنيفة، قد تصدّر من الرجل، رخّت يدها عن مسكِ أكرته، بقيت تستمع:

- منذ متى لم ينم.. (توقف الرجل عن أكمال عبارته)

لم تجب المرأة، تأكد لرنا، أنها صفاء، وليس سواها، هل تكتفي بهذه المعلومة؟ أم تستمر في المراقبة؟ لترى الأمور كما هي، ولا تكتفي فقط بالاستماع.

همست صفاء للرجل:

- منذ أن أصيب زوجي بالعمى في ليلة ضرب بها بشدة على وجهه فأنطفات عينيه وضربت اعضاءه الحساسة، توقفت الحياة في جسده، قبل خمس سنوات، ثم تأوهت: آي آي آي
- سأدلكّك بزيت الزيتون، فهو أكثر فائدة ونفع من كل الزيوت.
مرت فترة صمت ثقيلة على رنا، أنقطع صوتيهما، قالت لنفسها، "هذه فرصتي في الكشف عن هذه المرأة، يجب أن أفتح الباب الآن، ولكن مهلا ماهي حجتي عندما أفتح الباب، تذكرت عبارة الرجل، زيت الزيتون، ستقول إنها تبحث عن زيت الزيتون لأن أحلام أصابها التشنج أيضا".
قبل أن تُمسك أكرة الباب، ندّت ضحكة خليعة من صفاء:
- أنتظر.. ماذا تفعل؟
قال لها:
- يجب أن أدلك هذه أيضا.
استسلمت صفاء، كما تخيلت رنا، الى أصابع الرجل وهي تداعبها، فقد أنقطع صوتها الآن، قالت رنا لنفسها: " لقد أنشغل الرجل في التدليك كما يبدو، ولن يلاحظ عندما أفتح الباب وجودي"!
قطعت رنا أنفاسها، ضغطّت على إكرة الباب، ببطءٍ شديد وهدوء، حابسة أنفاسها، ضاغطة على أعصابها، ألا تفلت منها حشرجة، قد تفضحها، غير إنها في منتصف المسافة، سمعت صوت صفاء ضاحكة:
- لا أتحمل أرجوك، أبعد أصابعك.
أرخت رنا يدها عن أكرة الباب، رجعت خطوة الى الخلف، أستمعت الى حديث طويل سردته صفاء، قال الرجل لها كلاما كثيراً، ثم قالت لنفسها، بعد أن شعرت بعدم جدوى الدخول الى الغرفة:" أنت عاقلة يا رنا لماذا تحشرين نفسك في مواقف صعبة مثل هذا، أرجعي الى مكانكِ مادامت قد بانت لك حقيقة هذه المرأة"..

عادت رنا عبر الرواق المظلم الى مكانها، ولما أرادت أن تجلس على فراشها، أشارت الى أحلام لتقترب منها، نهضت هذه فرحة، ستستمع الى معلومات طازجة عن غريمتها.
كل الرجال أستسلموا الى النوم، الضرير وعماد، حتى هليل، الذي كان قد أبقى نصف عينيه يراقب ما يجري، قبل أن تهرع أحلام الى رنا، وجد نفسه يستسلم الى سلطان النوم أيضا، جلست أحلام بجانبها، أخذت رنا تروي لها ما سمعته.
قالت أحلام متذمرة:
- لماذا لم تفتحِ الباب؟
- أخاف من عدوانية الرجل، أنت تعلمين كيف يصير الرجال إذا ما أنكشف أمرهم لاحدٍ.
بقيت أحلام جالسة، عيناها الى الرواق المظلم، رنا تراقب ردود أفعالها على وجهها.
همست رنا:
- أعرف بم تفكرين، لن تذهبي الى هناك يا مجنونة.
أمسكتها من فخذها المتصلب،
- اهدأي، كل شيء قد أنكشف لنا.
التفتت إليها أحلام:
- لم ينكشف كل شيء بعد.
أستيقظ هليل واستقام في جلسته، خاطب أحلام:
- من الأفضل أن تأتي الى فراشك، لا تتهوري.
كان هذا النداء من قبل حبيبها، كافياً لكي تعقل وتخّمد جنونها.
عادت الى مكانها، رمت بجسدها على فراشها، باغراء نطقت:
- نحتاج الى زيت الزيتون، سيفقدني التشنج أعصابي.

- ميخالف تالي الليل، اهدأي الآن.
بعد قليل عادت صفاء، تسير بخطى بطيئةٍ، راقصةٍ، أفردت خصلات شعرها الأسود الطويل بإصابعها، تتمايل سعيدة بمشيها شاعرة بالإمتنان، مبتسمة، تعتقد أن الكل في حالة نوم، بسبب التعب والجهد الذي بذلوه طوال اليوم، لم تصدق صفاء، عندما وضعت رأسها على الوسادة، أن تقول لها أحلام:
- بالعافية!
ندت ضحكة مكتومة من رنا، وضع هليل يده على فمها لتسكت، فهي مستعدة في هذه اللحظات، كما يتصور، لتقسّم لها بالكلام، شعر بالإرتياح أن واحدة ممن تتابعه، تلاحق كل صغيرة وكبيرة تند منه، قد حققت بعض أحلامها.
تذكّر أنها مسكينة، تحتاج الى رعاية وحنان، بسبب الجور الذي أصابها من جراء ضياع نور عيني زوجها وفقدانه رجولته، تعاطف هليل مع حالة صفاء، هذه المرأة الجميلة التي تتقاطر أنوثة وعذوبة، لعن كل من تسبب في حزن الناس من طائفيين وسفلة حكموا بلادنا.
في تلك الإثناء دخل الرجل كبير السن، جلب صينية مغطاة بشرشفٍ، فيها بعض الطعام، وضعها في منتصف الغرفة:
- الى العشاء إيها الإحبة.
كان قد بدا الرجل سعيداً ومبتهجاً، توردت وجنتاه حاسر الرأس، اتسعت أبتسامته أكثر من المعتاد، تبادلت رنا وأحلام وهليل النظرات وهم يكتمون ضحكاتهم.

30

نامت صفاء بجانب زوجها الضرير، وهي في أشّد لحظات التوتر والقلق، بعد فقرة التدليك، يعود سبب توترها الى تلك النظرات والضحكات المكتومة المتبادلة بين رنا وأحلام وهليل، ترى نفسها إنها لم تفعل شيئاً تلام عليه، يستدعي السخرية، إنها في الحقيقة، كانت تبحث عن حلولٍ، عن صيغةٍ جديدةٍ لحياة مدمرة، عاشتها بإضطرار ومرارة وألم مع رجل، تقريباً أنتهت عنده الحياة، أصبح زوجها كل همه أن يحضن ولده، ويقبله، حين يلتقيه في ألمانيا.

تعلم بإسباب حنق المرأتين منها، فهي محبوبة وجميلة، ذات شعر أسود طويل، ليس مثل رنا عود الخيزران، بلا أنوثة يمكنها الإعتزاز بها، وليست مثل أحلام التي تشبه كلبة تحوم للارتواء من إي كلب يصادفها، ويأليتها أرتوت، كي تكّف عن ملاحقتها والسخرية منها.

أما هذا الكلب هليل، بدأت تمقته، بسبب انضمامه مع المرأتين ضدها، ترى أنه لا يعرف ماذا يريد من حياته التي أمضاها في اللاجدوى والحروب بحثاً عن حلول.

هكذا وضعت صفاء لكل واحدٍ من الساخرين، أطاراً تعلل بها سبب حنقهم منها وسخفهم، لتريح نفسها من هذا القلق والتوتر الذي يأكلها، أتعبها العمل هذا اليوم، مثلما أتعب البقية، كانت بحاجةٍ الى مساج لتريح بها عضلات ساقيها وظهرها، غير إنها لم تتصور أن تكون دقائق المساج، محط سخرية هؤلاء الثلاثة الذين تكرههم أشدّ الكره.

لما جاء الرجل بالعشاء، كانت تتضور جوعاً، لا تحبّذ الجلوس أمامهم، خشية أن يجلدونها بنظراتهم الساخرة، غطّت رأسها بالبطانية، كانت تستمع الى همسهم.
بعد الإنتهاء من العشاء، جاءها الرجل كبير السن، قال لها، وهي مغطاة الوجه بالبطانية:
- إذا كنت مستيقظة، لقد أبقينا لك القليل من الجبن والزيتون والخبز كي تسدي به جوعك سيدتي، غداً لدينا الكثير من العمل، ولابد أن تتزودي بالطاقة.
سمعت رنا القريبة منها هذا الهمس، ركز سمعها على كلمة "طاقة"، فقالت موجهة كلامها الى أحلام "وين بقت اكو طاقة"!
سمعت أحلام تعليق رنا فأضافت:
-يجوز بقيت شوية "توشالة" تفيد تالي الليل.
ضحكت رنا، لم يكن هليل، يستسيغ هذا الحوار الساخر بين المرأتين، فهي لم تفعل شيئاً منكراً، حسب قناعته، بدا له الأمر أن الرجل قد لحّ عليها، لإخذها الى تلك الغرفة يعمل لها مساجاً.
نهض هليل، جلب لها الطعام فأيقظها:
- كلي لخاطري أرجوك.
أزاحت البطانية، تبتسم، تناولت الطعام، من دون أن تنظر الى المرأتين الجالستين على فراش رنا يراقبانها.
سألت أحلام رنا:
- هل كانت زوجته العجوز تساعده في المساج، أم إنها لا تدري خطية؟
ردت عليها رنا:
- يمكن تدري، لا أعتقد إنها تشعر بالغيرة ربما بالإعجاب، أظن كانت تتمنى هي التي تقوم بالتفريك وليس زوجها.

كانت هذه العبارات المسمومة، تصل الى مسامع صفاء فلم تبال بها، ألتهمت الجبن والزيتون بسرعة، نامت. قالت لنفسها "أنا أعقل من هاتين العاهرتين".

نام الجميع، الا أحلام التي نهضت الى فراشها، تمددّت عليه، تنظر الى هليل ثمة تساؤل، هامسة:

- أين وعدك يا كابتن؟

لم يجبها، ناقم من تصرفها ضد صفاء، أدار ظهره لها، أقتربت منه ووضعت فمها بقرب اذنه:

- جسمي كله متشنج، أين وعدك حباب؟

يلّف القاعة صمت مطبق، ألا من شخير الضرير الذي نام بدون عشاء، صوت شخيره يقلق أحلام، متذمرة من رد هليل الصامت، تراقب رنا تحركات أحلام، تشعر بقلقها وعصبيتها، تتقلب على فراشها، بعد جفاء هليل، وعدم الإستجابة لجنونها.

ترى رنا، بأن ما يقوم به هليل هو عين الصواب، تعلم أن زوجها مازال مستيقظاً، ينتظر حنانها، تعتقد أن أجمل ما فيه، إنه لا يسأل، لا يريد أن يعرف ماذا يجري، مستسلماً الى إرادة المجموعة، الى خططها.

أما الأحاديث الجانبية بينها وبين أخته، لا يريد أن يفهمها، مادامت حوارات فيها محبة وتفاهم بين امرأتين، كل ما يهمه هو أن تنتهي العشرة أيام، ويركبون الزورق باتجاه أوروبا.

مدّ عماد يدّه إليها، أمسكتها من معصمه حانقة، وضعتها على فخذه.

- احنه بيا حال.

وضعت البطانية على وجهها، أستسلمت الى النوم، لم يعد زوجها للمحاولة ثانية، يعرف إصرارها في مثل هذه المواقف، وهي تحاول الإستسلام الى النوم، فكّرت رنا بصفاء زوجة الضرير، ماذا لديها

ضدها، لماذا كانت محترزة منها، كان يبدو في داخلها شيئاً، تحتفظ به لنفسها، تعتزم أن تؤنبها عليه، ها هي الآن، لديها ما تواجهها به، إن فتحت فمها، الى إي مسألة عالقة في ذهنها، " ماذا يمكن أن يعلق بذهنها؟ لم أخبر بإي تفصيل من قصة اختطافي."

تحتفظ رنا بصورة الفتاة الإيرانية، ومعها الفتى الذي كان يجلس بالقرب منها، شاهدت هذا الفتى صباح اليوم، ينقل الصناديق، غير متأكدة منه، تعلم رنا إنهم الآن في دوامة، لا يمكن الفكاك منها، تشبه الى حدٍ بعيد دوامة الحصار الذي عاشوه في زمن ما، قبل سقوط الطاغية، لا تريد أن تتذكر تلك الأيام، كيف توقفت فيها الحياة، توقف البيع والشراء، أخذت الناس تهرع لبيع حتى ابواب بيوتها وشبابيكها، لا تريد أن تتذكر كيف أعدم عمها بسبب خزن السكر، أو تتذكر كيف ألقي باخيها الوحيد الى دهاليز سجون الأمن العامة، بسبب نكته قالها ضد الرئيس، تقول لنفسها، "يكفي أنني مازالت على قيد الحياة"، بعد أن أنتهوا عائلتها، بقي لها عماد في هذه الدنيا، وهذا لا يفي بالغرض، فهو جبان وبخيل، ،أخته أحلام ليست هي الصديقة التي ترتاح إليها، لأن فيها من العقد والمشاكل ما يمنعها من جذبها إليها، كي تبوح لها بعذابات روحها، ترى أن الحل الوحيد في عبور البحر باتجاه أوروبا، قالت لنفسها "سنعبره أن شاء الله".

أحلام مازالت تتقلب على فراشها، لا تعلم باسباب صدود هليل هذه الليلة، تنظر إليه يائسة، لعله يدير ظهره إليها، قلبها يخفق بالحب له، لم تكن تشهد في حياتها كلها، أنها شعرت بدفء المشاعر العاصفة الجيّاشة، مثل ما تمر بها الآن حتى مع زوجها قبل سنوات.

تذكرت إنها صباح اليوم، وقف خلفها، يعلمها كيف يخرط الزيتون من الأغصان، شمت رائحته الزكية، لم يكن منسجماً معها كل الأنسجام،

الجدية في العمل أخذ منه كل الوقت، كانت كلما تتحين الفرصة لتقترب منه، يتجه الى مكانٍ آخر من الشجرة ليخرط الزيتون، قالت في نفسها يجب أن أعامله بطريقة آخرى، بحثت عن المقص بين طيات حقيبتها الجلدية الصغيرة، لما وجدته قالت لنفسها، "غداً اثناء العمل وين يروح المطلوب ألنه"، أبتسمت، ثم نامت.

عندما طرّ الفجر، دخل الرجل كبير السن باسماً، يزهو بالسعادة، تسير خلفه امرأته العجوز تحمل صينية الفطور، خاطبهم بصوته الجهوري:

- الى الفطور إيها الأحبة، ثم الى العمل، الشمس ستشرق علينا ولله الحمد.

لم يستيقظ إي واحد منهم.

31

أنزوين النساء الثلاث في غرفة مجاورة لصالة منامهم، أشرقت الشمس، تسرب شعاعها من النافذة، أنزوين ليرتدين ملابس العمل، البدلة الزرقاء، أخذت أحلام زاوية من الغرفة، مسكت بدلتها بيّد والمقص باليّد الآخرى، كانت هيأته لهذا الغرض منذ ليلة البارحة، التفتت الى رنا المشغولة بترطيب وجهها، ونظرت الى صفاء مشغولة بلّم شعرها الطويل، وجدت الفرصة حانية، فتقت البدلة من وسطها وجعلت فيها، فتقاً صغيراً، لم تحدث صوتاً يثير الإنتباه، بعد أن قامت بذلك، أقتربت أحلام منها، أخذتا تتهامسان في أمور لها علاقة بالبشرة والأصابع وراحة اليدين المشروختين، نظرت إليهما صفاء بإحتقار، لإنهما ، ذهبتا بعيداً، ليلة البارحة لتفسير الدقائق التي أختفت فيها.

كادت تفتح فمها، لتقنعهن بعدم وجود إي شيء، لكنها، ارجأته الى وقت أخر، الاثنتان كانتا تنظران إليها بإزدراء وهي تدير ظهرها اليهما.

رنا النحيفة تشعر بالحسد والغيظ لأن الله أعطاها هذا الجسد المثالي، إذ تنّعم بامتلاءٍ مثير، تتمناه لنفسها، لكن حياة رنا التي أمضتها في تدريس الرياضة وعشقها للعبة كرة السلة، جعلتها تنأى عن الأمور التي تشغل إهتمام النساء، تتمنى الآن أن تمتلك جسداً مثل صفاء.

لما أنتهين من إرتداء الملابس، دخلن الصالة، جلسن الى صينية الفطور، جلست أحلام بشكل سجود الصلاة، حتى تخفي الفتق ما بين فخذيها، وضع حساء عدس باوان على عدد الموجودين، مع الخبز الحار، أبريق شاي وستة أقداح، أنتهوا من تناول الفطور، أخرجت صفاء علبة

سجائرها من طيات صدرها، أستلت سيجارة، دخنتها، قبل أن تعيد العلبة الى صدرها، ناولت واحدة الى زوجها الذي أمتصها بسعادة، مدّت يدها الى هليل فشكرها:

- أقلعت عن التدخين، شكرا لك.

ناولته السيجارة، بالرغم من إنها في الأمس، كرهته، لأنه تضامن معهما ضدها، لم يكن البارحة ودوداً، غير إنها تشعر حالياً، أن ليس لديها أحد يمكنها الركون إليه سواه، نظراته الطيبة الحنونة، تدوخها أحيانا، تصيبها بالدوار، تحولت لديها مشاعر المقت الى مودة.

صرامة وجه رنا وهي تزدري الخبز، آثارت لدى هليل شعور بإنها صعبة المراس، يرسم شعرها البني القصير ووجهها النحيف، ملامح امرأة عصية على الفهم، فهي بالنسبة له لغز محّير، كيف أمكنها أن تفلت من قبضة اولئك الطائشين؟ وماذا لديها من معلومات لم تخبر به؟

يعتقد أنها تحتفظ بصور في حقيبتها أو بين طيات ملابسها، بدليل قول الرجل بانه سلّم المحفظة والحقيبة، كان قد شاهد بحوزتها حقيبة جلدية بنية، يبدو سرقتها من كوخ الإختطاف، أكيد أنها رأت ما تحتويها، لكنها لماذا لم تبح بمحتوياتها، لحد الآن؟ ولماذا لم تخبرهم بإي شيء عن تلك الساعة التي مرت بها؟

"سأنزوي بها دقائق إذا نهضت للإغتسال أو في الطريق بعيداً عن زوجها، لأعرف قصة الساعة الغامضة التي أمضتها بالكوخ، وأعرف قصة الصور التي تخبئها، انا لا أظن السوء بالناس ".

لما همّت رنا بالنهوض، بعد انتهائها من تناول الطعام، أتجهت بخطواتها الواسعة الى المغسلة في نهاية الرواق، نهض هليل، لحق بها، وسط دهشة أحلام، التي كانت تعتقد، أن هليل سيقوم بعدها هي الى المغسلة،

وليست رنا، تركت الأمر، تشاغلت بالطعام، لأن كل ما سيقولانه أو يفعلانه ستعرفه بعد قليل،
تعلم أن رنا ليست من النوع الذي يأتي بسهولة الى الكلام المعسول، ولا تعطي اسرارها ببساطة، لكن نهوض هليل خلفها، يدل على أن في ذهنه أسئلة، لم تنهض أحلام، بقيت تفكر،"ما نوع تلك الأسئلة؟ هل يريد أن يعرف شيئاً عنها هي بالذات؟ أم لديه غرض آخر يخص صفاء؟ أو يريد يعرف ما سمعته ليلة الأمس في غرفة المساج؟"
مرت دقائق ثقيلة على أحلام، عادت رنا، على وجهها أبتسامة، موجهة الى أحلام، لما أنتهت صفاء من سيجارتها، أطفاتها في الأرض، رمتها في فراغ الغرفة، أستاء عماد من رمي عقب السيجارة، فكر: "متخلفة"
نهضوا جميعاً باتجاه بوابة البيت الكبير، ترسل الشمس أشعتها الذهبية الى الغابة، تخللت جذوعها وأغصان الأشجار، يسبقهم الرجل كبير السن، يسيرون بتثاقلٍ وعدم رغبة، تسير آخر الرتل أحلام ورنا، التي حكت لها كل ما جرى بينها وبين هليل عند المغسلة، سألها عن محتويات الحقيبة، حدّثتُه عن الصور والفتاة الايرانية المنبطحة بملابس فاضحة، سألتها أحلام:
- كيف عرفت أنها فتاة ايرانية؟
أجابت:
- واضح من القرط على أنفها وصرتها، إنها تشبه احدى الفتاتين، اللتين جاءتا الى كوخنا، هل تذكرينهما، كانت تبدو إيرانية من طريقة رسم الحاجبين، أنها من المطاردين الذين توافدوا بكثرة الى هذا البلد، بعد مضايقة حكومتهم عليهم، هم بدون وثائق. بدت قصص أضطهادهم مهمة، يقبلون بسرعة من دول الإستيطان لدى برنامج الامم المتحدة لشؤون اللاجئين، خصوصا كندا واستراليا، ليس مثل العراقيين، يدققون

بقصصهم، ووثائقهم، ويشكّون بالصغيرة والكبيرة، أين دفتر الخدمة العسكرية؟ هل استعملت السلاح في الحرب؟ طبعاً الجندي لابد أن يستعمل السلاح في الحرب، في الأخير لا يقبلون بهم.

سألت أحلام:

- هل العراقيون غير مرغوب بهم حقاً، إنهم أكثر شعوب الأرض اذى؟

قالت رنا:

- اي نعم، لا يقبلونهم، لأن أغلب قصصهم كاذبة، وغير مستساغة، من وجهة نظر لجنة شؤون اللاجئين طبعا.

سألت أحلام:

- هل أعطيت صورة الفتاة الايرانية الى هليل؟

ردت رنا:

- نعم، هو الذي أراد مطابقة صورة الفتى بالشخص الذي يأتي حاملاً الصناديق، قلت له أنا متأكدة أنه هو نفسه في الصورة، أخذها مني ووضعها في جيبه.

وصلوا الى مكان جني الثمار، نقطة التجمع المثالية، توزعت بينهم رفوش الامشاط الحديدية، أخذت النسوة الأبسطة، سار كل أثنين معا، هليل واحلام، رنا وعماد، صفاء مع الرجل كبير السن، فيما بقي الضرير جالساً بجانب الطعام والماء.

أراد هليل اليوم الإبتعاد كثيراً عن أنظار المجموعة، كانت أحلام تتبعه، حتى وصلا الى مكانٍ، أعتقد هليل، أنهما لا أحد يمكنه رؤيتهما فيه، وقد خف شعاع الشمس لكثافة الأشجار، عندما وجد أن الجميع لا يلاحظهما، أنزوى بها خلف شجرة، لثمها بقبلة طويلة، أرتخت أحلام، بعدها قالت له متهكمة:

- لن تبقى لنا همه بعد للعمل.

خاطبها:
- أعلم أنكِ غضبتِ ليلة البارحة عندما أدرت ظهري لك، لايجوز أن نخون أصالتنا عزيزتي، أنت تعلمين أنني أبن شمائل وأخلاق جنوبية، مستورثه أباً عن جد، طبعا الشمائل الطيبة موجودة لدي كل أبناء العراق.. لكنني الآن، مستعد أن أتزوجك أمام الله، هو شاهدنا.
فوجئت ،ضحكت، فرحت، أضطرب قلبها بشدّة، تفتحت كل نضارة روحها المحتبسة، فما كانت تنشده، ما كانت تحلم به في تلك الليالي الجافة، ها هو هليل يريد تحقيقه، بالوضوح وخفة الدم التي تعشقها فيه، بإسلوبه الساحر والمهارة الذكورية التي يتميز بها، لا تريد أن تخبره عن الجحود والضيم والإلم والإنتظار والإنسحاق والبلادة التي عانت منها طوال الخمس سنوات من القهر، ولا عن الدموع التي ذرفتها على وسائد البكاء، طوال ليال تبكي لفقدانها زوجها، تبكي لفقدانها الحياة من بعده، لا تريد أن تخبره أن الحياة عند النساء بدون الرجال، لا معنى لها، فهو يعرف ذلك.
لكنها الآن، في نبرات صوته، تصدح مهللة موسيقى روحه المختلفة، لاحظت أرتجافاً في يديه وساقيه ووجهه.. في نظرة عينيه الفتاكة الغارقة بالشهوة، لا تريد أن تخبره أنها استعدت، لهذه اللحظة، منذ ليلة أمس، حين هيأت المقص وفتقت البدلة صباحا من وسطها، هذا الكلام لا يجدي نفعاً الآن.. أقترب منها، لثمها بقبلة أخرى، حضنها بين ذرعيه بقوة، حلقت مثل طائر كان حبيساً في قفص، وهما يجلسا على الإرض الرطبة، داعبها مراراً، قبّلها ثانية وثالثة، مرّر أصابعه في كل مكانٍ من جسدها.. ثم فوجئ بشيء لم يخطر على باله قط، فوجئ بوجود فتقٍ في البدلة العمالية، في ذلك المكان مصدر كل عذوبة الحياة، كان ذلك كافياً لكي

ينّعم معها، بلحظات النشوة والسعادة، عبر ذلك الفتق التي أحدثته صباحا، في بدلتها.
رنا من جهتها، لاحظت أنزواء أحلام وهليل خلف الشجرة، علمت ما يمكن أن يحصل هناك، فقد لاحظت أحلام صباحاً وهي تقوم بشيء لا يغرب عن بالها، اختفاء أحلام وهليل جعلها تشتاق الى زوجها، غير أنها مصممة على الزعل، بسبب جبنه في تلك الليلة، راقبت رنا الرجل وصفاء، كانا يشتغلان بهمة، لا تعرف ماذا يسرد عليها من قصص وحكايات، لأنه بدا هو الذي يتكلم وصفاء تصغي له..
بدأت الشمس تتعامد فوقهم، نظرت رنا الى التلال، صار كل شيء واضحاً، اذ ترنو أبصارها الى البحر الذي يقع خلف التلال.
أحلام وهليل لا زالا مختفيين عن أنظار الجميع، ثمة بوق باخرة زعق بالقرب منهم، عرفوا أن الحياة تدب في البحر ليل نهار خلف التلال التي تشرق عليها الشمس، مثلما تغمر باشعتها أشجار الغابة،
بوق الباخرة آثار في نفس رنا مشاعر شتى، عن قرب صعودهم إليها، قالت في نفسها " ما هي الا أيام ونبحر بإتجاه الحرية"، كانت تعمل مع زوجها الصامت، أقتربت منه لترى كيف يعمل، ينظر إليها، وفي عينيه حنان دافق، أصبح خلفها، ضغط على جسدها باتجاه الشجرة، لم تكن تمانع، وتمنت أن يقوم بواجبه الآن باسرع ما يمكن، لكنها حين تذكرت جبنه، أبعدته عنها:
- مو وكتها.
أبتعد عنها مضطراً، أخذ يخرط الزيتون بغير همة، صوبت رنا نظرها الى جهة أحلام وهليل، لم تجدهما.. " ثمة ما يريب، ثمة حدث مهم بينهما" قالت في نفسها.

بعد ساعاتٍ من العمل المضني، صاح الرجل بصوته الجهوري، حان وقت الغداء إيها الأحبة، سمعه الجميع، بدأوا يتقاطرون الى المكان. آخر الواصلين هليل وأحلام.

32

تجمعوا حول مائدة الغداء، نظرت رنا الى الشاب الذي جلب الصينية، شاباً وسيماً أبيض، في عينيه قلق، يحدق في كل الإتجاهات، ينظر الى النساء بشهوة، فكرت رنا، "أنه نفسه، صاحب الصورة مع الفتاة الإيرانية".

نظرت الى هليل، تساءل بعينيه عن مغزى تركيز نظراتها إليه، رفعت رأسها الى الشاب، لتقول ما معناه "أنه الشخص المقصود صاحب الصورة "، هزّ هليل رأسه، علم ما تريد أن تقوله، رفع رأسه إليه، ركّز في الشاب، تفحصه جيداً، لاحظت أحلام، ثمة تبادل نظرات بين رنا وهليل، تشير الى الشاب الواقف خلف الرجل صاحب الغابة، نظرت إليه مثلهما، تقابلت عيناها بعينيه الذي أخذ ينظر إليها، أبتسم لها، لم تستجب له أحلام، بحركة مدروسة، لاطفت هليل، وضعت يدها على فخذه،

- ناولني قطعة الخبز.

فهم الشاب أن هذه المرأة الجميلة، عسيرة عليه.

ألتفت إليه الرجل الكبير، رطن معه، أنصرف الشاب وهو ينظر الى أحلام، والى المجموعة التي بدأت بتناول الطعام.

أستخرج هليل الصورة، نظر اليها، ثوان معدودة، طواها ووضعها في جيبه، هّز رأسه ناظراً الى رنا موافقاً على قوة تخمينها.

خاطب هليل الرجل:

- هذا الشاب من تلك المجموعة الطائشة، أليس كذلك؟

أبتسم الرجل، عدّل من وضعية جلوسه، فلامست ركبته فخذ صفاء، رد:

- هذا توأم ذاك، سبحان الله، أخوان من بطن وظهر واحد، أحدهما شرير والثاني خير، والله يفعل ما يشاء.
تضايق عماد بسرعة حين سمع كلمة الله:
- ما دخل الله في هذا الموضوع، الشرير شرير والخير خير.
رد الرجل كبير السن:
- كلا يا أخي، أن الله يضع العقبات أمام الأنسان، كي يرتقي بنفسه وأعماله الى السمو، من يفشل في إرتقائها، يصبح ظالماً نفسه، ومن ينجح يكون قلبه سليماً، يقول الله في محكم كتابه " فلا أقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو أطعام في يوم ذي مسغبة".
صمت قليلا، وأضاف:
- أسألك، هل هناك عبودية وعبيد في وقتنا الحالي؟ كلا طبعا، لماذا القرآن يتحدث عن فك رقبة، إي تحرير العبيد، ثم لحقها بالقول، أطعام في يوم ذي مسغبة، يعني من يطعم فقيراً أو جائعاً، كأنما أجتاز عقبة واحدة من عقبات الآخرة، وبمثابة فك رقبة عبد من العبيد وتحريره.
ضحك عماد:
- مثلما تفعل أنت الآن، تطعمنا في يوم مصبغة.
صحح له الرجل:
- في يوم ذي مسغبة.
قرصته زوجته رنا من فخذه، التفتت اليها:
- كف عن السخرية في الدين.
قال هليل للرجل:
- أنا سألتك عن الشاب، فأذا بك تذهب بنا الى العقبة والعبيد، ما شأن العقبة بالشاب؟

- هذا الشاب طيب ومسكين، ترك الآخرين، جاء يخدم عندي لصلت القرابة بيننا من جهة أهل زوجتي، الحياة تفتح ذراعيها للإنسان الخير.
ضحكت صفاء، هزّت يدها، كأنما تضمّر شيئاً، فانتبه هليل الى طريقة ضحك صفاء وهزّ يدها، تأكد أن الرجل يتناقض في كلامه، مع ما في نفسه من شهوات وشرور، ها هو يلامس ركبته فخذ صفاء، من دون شعور بالحياء، إن كان حقاً يريد السمو ولا يستحرم، ويزعم مخافة الله، هل يجوز له أن يدّلك ظهر امرأة ليست على ذمته؟
نهض هليل وشعر بأن ما يجري حولهم مريب، خطير، يجب أن يجدوا حلاً له، نهضت بعده أحلام، لحقت به يتمشى لوحده بإتجاه السلال التي امتلأت بالزيتون.
علم الرجل أن هليل غاضب من شيء ما، ترك الغداء ولحق بهما،
- لماذا تركت غذاءك؟
- شبعت والحمد لله.
قال الرجل:
- كلا لم تشبع، لكن شيئاً ما ضايقك من كلامي، أليس كذلك؟
توقف هليل عن المشي، نظر الى الرجل، نظرة فيها ما فيها من المعاني، لم يقل شيئا.
عبر الرجل:
- تحدث، ما الذي يمنعك من الكلام؟
قال هليل بهدوء وهو يكتم غيضاً:
- أنت تتحدث عن العقبة، كيف يرتقي الأنسان ليعلو الى الله، بالوقت نفسه، تدلّك ظهر أمرأه غريبة؟ أليس في ذلك تناقض؟
صُدم الرجل من منطق هليل الواضح، إرتبك، أستعمل يديه لتوضيح فكرته:

- ما قمت به أمس بطلب منها، هل يجوز أن تكسر خاطر امرأة؟
سأله هليل:
- هل كانت أمرأتك موجودة بالغرفة نفسها التي تدلك بها ظهر الأخت صفاء؟
مازال يحرك يديه بعصبية:
- لماذا يجب أن تكون امرأتي موجودة؟
تذكّر الرجل شيئاً، فقال له، وهو ينظر الى أحلام، نظرة فيها وقاحة كأنمّا يضمر شيئاً ضدهما:
- وأنت هل يجوز لك أن تنفرد بامرأةٍ ليست على ذمتك في آخر الغابة، وتنكحها على طريقة الكلاب؟
ضحك هليل:
- نحن متزوجان، على سنة الله ورسوله، هي أرملة بالغة أمرها بيدها، أما الاخت صفاء، فهي على ذمة رجل آخر، أمرها ليس بيدها؟
شدّد هليل على كلمة الأخت، غير أن الرجل لم يكن يريد أن يفهم هدف هليل من هذه المحاججة، فقال هليل له:
- أتعلم لماذا سألتك عن الشاب؟
بقي الرجل ينتظر تكملة جملته، لكزته أحلام، توقف هليل عن الإسترسال، سأل الرجل:
- لا أعلم لماذا سألتني عن الشاب؟
أراد هليل أخراج الصورة من جيبه، ألا أن أحلام أعطته أشارات بأن لا يفعل، فهم أمرها، أرجأ فكرة إظهار الصورة حالياً، خلط عليه الكلام:
- كنت أظنه من العصابة نفسها، لكن توضيحك بأنه توأم شخص آخر، يكفيني، لنعد إليهم، فقد أبتعدنا عنهم.

عاد هليل وأحلام الى المجموعة وبقي الرجل واقفاً في مكانه يمسّد بلحيته.
نظرت صفاء الى هليل، رأته عاقداً ما بين حاجبيه، فكّرت أن أمراً قد حصل بينه وبين الرجل الكبير بشإنها، لأنها سمعت أسمها يتردد على لسان هليل، تقف أحلام بجانبه، توزع أبتسامتها على المجموعة، تشعر بالغبطة والأنتشاء " لأن هليل قال للرجل هذه زوجتي"، منذ خمس سنوات، كانت تتمنى أن يكون لها زوج يحبها ويصونها ويخاف عليها، أفتقدت كثيراً الى سرير الزواج بعد مقتل زوجها، بقيت تقلق وتخاف على مستقبلها، لا تعرف ماذا سيكون مصيرها.
في العراق؟ لا أحد يقبل الزواج من أرملة أو مطلقة، حتى لو كانت جميلة مثلها، تشعر الآن بالخيلاء والغبطة، بعد عبارة هليل "هذه زوجتي على سنة الله ورسوله" بالرغم من إنها موقنة، أن عماد لا يعترف بهذا الزواج.
مدّ هليل يده الى يدها، قرأ سورة الفاتحة، قال لها "أن الله شاهدنا"، عماد ملحد لا يعرف ما يعرفه هليل في هذه الأمور، قال هليل لها، "سأخطبك منه لنجعل الرجل الكبير هو الذي يوقع على مراسم زواجنا حسب الأصول المتعارف عليها أسلاميا".
تركهم الرجل كبير السن وهو يسير بخطى ثقيلة، ذهب الى البيت.

33

في منتصف الطريق الى البيت، تذكر الرجل كبير السن شيئاً، فتوقف، حكّ لحيته، عاد الى الغابة، كان قد أنتشر الجميع على أشجار الزيتون، بعد الغداء، بقي الضرير جالساً في مكانه، لا أحد يلاطفه في وحشة ظلامه الأبدي، وصل إليه الرجل الكبير، قال له كلاماً، نهض معه، أقتاده وفي يده ثمة إرتعاش، يسمع الضرير لهاثه، وخفقان قلب الرجل، أخذا يسيران باتجاه البيت بخطواتٍ بطيئةٍ، في تلك الاثناء، راقب هليل الرجلين، كانا يسيران وهما يبتعدان عن الغابة، توقف عن العمل قليلاً، ظل يفكّر في السبب الذي جعل الرجل كبير السن يعود من أجله، يصاحب الضرير الى البيت، توقفت أحلام مثله عن العمل، نظرت الى حيث ينظر باتجاه الرجل والضرير، لكنها وجدت الأمر عادياً، فليس ثمة ما يريب، كانت تريد أن تدخل الى عقل هليل، لتعرف بم يفكر في هذه اللحظة، لم تزل تغمر روحها السعادة التي مرت بها قبل دقائق، حين قال هليل للرجل كبير السن "أنها زوجتي على سنة الله ورسوله"، يعلم هليل أن الرجل أهين إهانة بالغة من قبله، لا يعرف ماهي ردود أفعاله، لدرء الإهانة أو مواجهتها.

بقي هليل ينظر إليهما حتى اختفيا عن بصره، صعدا درجتي السلم الى حوش البيت، أجلس الرجل كبير السن الرجل الضرير على فراشه، اختفى لدقائق معدودةٍ، داخل بيته الكبير، أعدّ للضرير عصيراً، جلبه له، شربه هذا، بنفسٍ مطمئنةٍ، شكره على حسن رعايته، ثم نام الرجل الضرير.

ظل الرجل، بعد ذلك، يحوم في البيت، يحاول إخماد حرائق روحه من الكلمات التي سمعها من هليل، لكن هليل نتيجة خبرته بإحوال الناس، كما علمّته الحروب، ومعرفته بدواخل النفس البشرية، رمى الرفش بعصبية، هرع راكضاً الى البيت، وسط ذهول ودهشة أحلام، التي لم تستطع سؤاله عن سبب تركه للعمل، وركضه فجأة باتجاه البيت، كل المجموعة من الذين مر عليهم وهو يركض، توقفوا عن العمل، ينظرون الى أحلام متسائلين لمعرفة سبب ركض هليل هلوعاً، تجيب بالإشارة بإنها لا تعرف ما به.

وصل هليل الى البيت لاهثاً، لمّا وجد الضرير نائماً في مكانه، شعر بالريب والخوف، بحث عن الرجل كبير السن، فلم يعثر له على أثر، ليسأله عن سبب اصطحابه الضرير الى هنا، قبل أنتهاء العمل.

يعلم هليل أن الرجل كبير السن قد خاب سعيه مع صفاء زوجة الضرير، ولمّا كشف زيفه، خشي هليل أن يدّبر للضرير أمراً، لكنه عندما رأه نائماً في فراشه، يتنفس بعمق، عاد الى الغابة، ماشياً الى مكانه، حيث تترّقب المجموعة وصوله بقلقٍ، أخبرهم بأنه كان مضطراً لقضاء حاجته، تنفسوا الصعداء جميعاً، ألا أحلام، التي لم تقتنع بحجته، لأنها رأت دمه يغلي، تعتقد أن الرجل كبير السن المزيف قد أنكشف لهليل، أدركت بما يفكر به، بما يمكن أن يفعله من سوء، فهو ليس أبن هذا البلد، راقبت أحلام صمت هليل وعمله في تمزيق أغصان الشجرة بعصبيةٍ وغضب، لم تشعر بالراحة والاطمئنان لحالته، قالت له:

- أخبرني ما بك؟ ما السبب الحقيقي الذي جعلك تركض خلف الرجل والضرير، أنا لست مثلهم.

كانت تبتسم له، كادت أن تقبّله، ألست أنا زوجتك؟ قالتها وقد وضعت يديها تحضنه من ظهره، لكنه أبعدها برقةٍ، كانت تقول كلماتها بغنج

وبرود، في محاولةٍ لإخماد حرائق روحه، وهو يكسر الأغصان برفش المشط الحديدي، لم يكن مبالياً بها، لا يجد الكلمات المناسبة التي يمكن أن تسعفه لتكفّ عن ملاحقته، وفي محاولة أخيرة وبائسة قالت له:

- هل تريد أن نذهب الى شجرتنا البعيدة، حيث لا رقيب ولا حسيب، سوى الله كما قلت لي.

لم يستجب، بقي يكسر الأغصان، صارت هي الآخرى عصبية مثله.

زعقت به:

- الآ تخبرني ما بك؟

سمع صوتها الجميع، توقفت عن العمل، جلست تحت الشجرة التي يكسر بإغصانها، تنظر إليه:

- أنت لا تحبني، أخذت حاجتك واكتفيت.

أنكسر خاطره عليها، توقف هو أيضا، أمسكها من ذراعيها لينهضها.

كانت رنا من جهتها، على بعد المسافة بينهما، تراقب ما يجري، من دون أن يفطن زوجها للجهة التي تنظر إليها.

نهضت أحلام، قبلّها هليل من خدها قبلة سريعة، شاهد عينيها اغرورقتا بالدموع، لم تكتم إنزعاجها:

- هيا أخبرني ما بك؟

وضع الرفش جانبا، قال لها:

- أنا أعرف مثل هذه الجهر القذرة، في أيام العسكرية، نراهم متمسكين بالإخلاق ظاهراً، وفي دواخلهم تصرخ قبائل الشياطين بإعلى أصواتها.

لم تفهم أحلام ما يريد قوله، وبحدسها الأنثوي الذكي، تعلم أن لديه كلمات آخرى مضمّرة، غير التي سمعتها، بقيت صامته، تنشد سماع صوته أن يحدثها عن إي شيء، لكنه توقف عن الكلام، تساءلت:

- ما علاقة الشياطين بالركضة؟ أخبرني أرجوك ماذا جرى؟ لماذا ركضت؟ ماذا رأيت؟ لماذا أنت فائر الأعصاب؟ بالرغم من إنني بجانبِك، ألم تخبرني إنك عندما تراني، تشعر بسعادة الوجود، ويهدأ صخّب الدنيا في نفسك، وأنك تُحب سماع صوتي، وترى وجهي ضاحكاً، ها أنذا أسمعك صوتي وأضحك، أكاد أحضنك، لكنك تحاول أن تبتعد عني بإسرارك، وصمتك.

بعد أن نفد صبره ووجد نفسه وصل الى مفترق الطرق، بات من الضروري أخبارها بهواجسه، قال لها حزيناً:

- أظن الرجل كبير السن، قتل الرجل الضرير.

34

لم تعمل صفاء، زوجة الضرير، طوال فترة ما بعد الظهيرة، في جني الزيتون، بسبب غياب الرجل كبير السن عنها، والذي كان يساندها ويمزح معها ويوجهها الى الطرق الصحيحة، بخرط الثمار بدون تكسير الأغصان، بقيت جالسة في مكانها تحت شجرة في الغابة، تنظر بغير ارتياح الى رنا وزوجها عماد، وهما يعملان بجدٍ وتجهمٍ، تنتقل ببصرها الى هليل وأحلام البعيدان عنها، تتضاحك وتمرح أحلام، تراها تشاكس هليل، أما هليل فقد كان يبطر أغصان الشجرة بقوة بدون رحمة، لا يستجيب الى ممازحتها، ولهوها، كان يكسر الأغصان بشراسة، يبدو لها عصبي المزاج، لم تصدق صفاء حجته حين ذهب الى البيت لقضاء حاجته، تعتقد أنه لحق بزوجها حين أقتاده الرجل، تتوقع أن أمراً جللاً قد حصل، لم يبح به لهم حين عاد.

ها هي تجلس تحت الشجرة بإعصاب تالفة، توقف ذهنها عن التفكير، عضلات يديها وقدميها مرتخية مستسلمة الى الوهن، قدماها لا تقويان على حملها، نَفَسَها ضيق بالكاد تستنشق هواء نقياً، صحيح أن زوجها أسمه صالح، لكنه لم يكن صالحاً معها طوال حياتها، قبل حادث ضربه على عينيه واعضاء جسده الحساسة، من جرائها فقد نور بصره ورجولته، لكنها تعتقد أنها لا تستطيع العيش بدونه، مهما كانت أعطال الحياة في جسده قد تسببت بتعاستها، هو زوجها اولاً وأخيراً، أوفى بوعده لها حين ترك كل شيء خلفه في العراق، طاوعها للسفر الى هنا، بانتظار عبورهم البحر بإتجاه أوروبا.

قبل أن يعمى، كان يعمل لدى القوات الأميركية في بداية الاحتلال، بقي معهم حتى قبل أنسحابهم في عام 2011، ولمّا انسحبوا لم يغادر معهم الى اميركا كما فعل الكثير ممن عمل لخدمتهم. كانت لزوجها، هواية رائعة أحبتها فيه، وهي العزف على آلة العود، أرتبطت به في أيام الدراسة في كلية الآداب/ بغداد، قسم اللغة الأنكليزية، في باب المعظم، حيث كان يدرسان معاً، أحبته لقدرته على العزف، أقتربت منه في سفرةٍ لطلاب الكليّة الى آثار الاخيضر، قرب محافظة كربلاء المقدسة، نجحت في إقامة علاقة حميمية معه، كان يأخذها الى فنادق الدرجة الاولى تستمع الى عزفه، تتناول أطباق فاخرة من طعام الفنادق، ثم تعود الى البيت بعد منتصف الليل، حيث تسكن مع أمها الأرملة.

تكره صفاء زوجها حينما يسكر، لا يعرف كيف يتصرف معها، يصبح رعديداً، أدمن الخمرة بعد الزواج، كثيراً ما كان يعيّرها حين يثمل، بإنها منحت نفسها له قبل الزواج، كان يطلب منها أن تحتسي معه الخمرة. رفضت في بادئ الأمر، لكنها بمرور الايام، حتى تسلّك الحياة، ولاتثير غضبه لأتفه الأسباب، بدأت تشرب، أكتشفت، أنهما حين يثملان، تتجددّ لديها السعادة، كانا حتى وهما يتناولان الطعام، لا يرتديان ملابسهما، بحجة أن حرارة الصيف قاتلة.

أكتشفت، أنه لم يكن يشعر بالغيرة عليها، حين كان يسهر معه ثلاثة زملاء في الملهى، الذي يعمل فيه، يحتسون الخمرة في البيت، قبل الذهاب الى العمل، تقدم لهم الخدمات، كان يجبرها على إرتداء ملابس ضيقة او مكشوفة الساقين، وحين تدّب الخمرة في دمه، يطلب منها الرقص على أنغام الموسيقى، يعزفها بحضور زملائه، باتت لم تجد حرجاً من ذلك، مادام هذا الأمر يسعده هو فقط.

أن عدم غيرته وعدم حيائه، جعلتها بمرور الأيام، تتمادى في شرب الخمرة، حتى مع زملائه، وفي يوم من الإيام، ثمل فيه أحد الزملاء، لحق بها الى المطبخ، وهي تعد لهم الباقلاء، شعرت بيّد وضعت على مؤخرتها، لم تعارض في بداية الأمر، لم تلتفت لمعرفة هوية واضع اليد، لظنها أن زوجها وحده من يفعل ذلك، لكنها حين التفتت إليه، زعقت به " شجاي تسوي أنت"؟ ركض زوجها الى المطبخ ثملاً أيضاً.

أخبرته بالأمر، أبتسم الزوج، قال لزميله بصوت متحشرج " بالله مو عيب.. بالله مو عيب "، كانت تتصور أنه سيشبعه ضرباً، لكنه لم يحرك ساكناً، بعدها أنتهت الجلسة بسلام.

لم يأت زملاؤه في الأيام التالية، غير أن الوشاة أخبروا عصابات السلاح تابعة لإحزاب أسلامية، بأنه كان يعمل مع الامريكان، كمّنوا له في الطريق السريع قرب الدورة، أوقفوا سيارته، ثم أوسعوه ضرباً، بعدها سرقوا سيارته الحديثة، وأطفاوا عينيه ورجولته.

مرت عليها هذه الذكريات، وهي ترى هليل يتقدم المجموعة بعد إنتهاء العمل قبيل غروب الشمس، بإتجاه البيت.

نهضت، سارت معهم، لكن عضلات قدميها لا تقويان على حملها، يراقبها هليل بنفاد صبر، وهي تسير ببطء، يلتفت إليها كل حين:

- يمعودة أمشي بسرعة؟

أحلام تقرصه من يده:

- مالك شغله بيها، لا تصير لوكي مال نسوان.

لما وصلوا الى البيت وقد حل الظلام، أكتشفوا أن الرجل كبير السن، لم يكن موجوداً.

هرع هليل الى الرجل الضرير، أقترب منه، جلس عند رأسه، وضع أصابعه تحت حنكه، شعر بالذعر والرعب، هزّه مرات عديدة، في وقتٍ،

كانت صفاء تراقبه، تتمتم بعباراتٍ غامضة، لا أحد يعرف ماذا تقول، تقف أحلام خلف هليل، تراه مرعوباً، فيما ترتسم على وجه صفاء، أمارات الخوف والهلع، واضعة يديها على فمها، قرّب هليل أذنه من فم الرجل الضرير، تزايد الرعب في حركات يديه، لم يستيقظ الضرير، فقد مات.

35

جلست صفاء تتّحب بجانب زوجها المسجى غطت البطانية كامل جسده، ترقرقت الدموع في عيون رنا وأحلام، ينظر عماد الى الرجل الضرير، يعتقد أنه قد دخل الى نهاية نفق الحياة المظلم الى الأبد، قال كلمات لا معنى لها:

- ربما هناك، في الموت يبصر الحياة من جديد، يرى ويكتشف، أفضل منا.

ردت رنا بغضب: أسكت يمعود!

تنظر رنا الى الجسد المسجى، في داخلها، كلام، لا تريد الإفصاح عنه في الوقت الحاضر، سمعته في ليلة التدليك، سمعت ذلك الكلام ولم تصدقه، لأن الأنسان يقول إي كلام في لحظات عدم التوازن إثناء نشوة الجسد، تنظر أحلام الى الرجل، تقارن بينه وبين زوجته الجميلة التي أهملته، وتركته نهباً لحزنه السرمدي يعيش ظلامه، وفي رأيها أن زوجته صفاء، لم تكن لتهتم به الإهتمام الذي يليق بزوجة محترمة، تاركة إياه في ضياع ذكرياته، يعيش ظلامه مرةً والى الأبد، بحثت عن سعاداتها ورغباتها بجنون.

تريد أن تلتهم الحياة، تلبي حاجاتها من دون أن تضع إعتبارا للعقل والقيم التي تجمع أواصر الناس، تتمنى أحلام أن تدخل الى عقل صفاء، في هذه اللحظات، لترى كيف تفكر، لترى ماذا تقول لنفسها، هي تعلم أن أنتحابها وبكاءها الصامت، ما هو ألا غطاء ضمن لعبة تتقنها بجدارة، فهي لم تحفل بحياة هذا الرجل المسكين، تبحث عن شيء آخر.

كأنما تريد أن تأخذ من الحياة أكثر مما أعطتها، تضايقت أحلام لما فكرت بسعيها المحموم، لتأخذ منها الرجل الوحيد الذي أصبح لها، هو الحياة التي أنتظرتها طويلاً، أن هدف أحلام للوصول الى أوروبا، تضاءل الآن الى الحد، الذي صارت عندها أوروبا من أوهام الماضي، يجب أن تنساها، لقد تعلّقت بهليل، الرجل الذي سيسعدها، صار لها هو أوروبا، هو الدنيا، هو الحياة، تراقب جلسة غريمتها، راكعة على ركبتيها وقدميها، بهذه الطريقة، مبرزة أنحناءات جسدها الممتلئ الجميل، تتعاظم مشاعر النفور لدى أحلام منها، ذلك لأنه لا يليق بامرأة منكوبة بفقدان زوجها في هذه الساعة، أن تجلس هكذا، كاشفة عن جسدها، شعور أحلام بالغيرة من صفاء، أنساها جلال الموت والموقف الصعب الذي يمرون به الآن، أنطلقت بتداعيات فكرها، تنتقد وتلقي باللوم عليها، لكنها لا تعرف، لماذا هليل يصرخ، وهو يبحث في أنحاء البيت، عن الرجل كبير السن، يستمع الجميع الى زعيقه، في الممرات والرواق، أين أنت يا رجل، عندنا ميت ؟

بدأت أحلام تقلق على هليل، لا تعرف سبباً لذعره وزعيقه وبحثه عن الرجل، تتمنى، ألا يكون حاضراً الآن، بعد أن خلعت صفاء ملابس العمل، وقد أظهر ثوبها الخفيف بياض جسدها، يبدو أنها كانت تضايقها ملابسها، فكّت العقدة في شعرها الأسود الطويل، صار منساباً الى مؤخرتها، أصبحت مكشوفة، تندب وتبكي بصوتها المبحوح، ما جعل رنا تبادر لتضع بطانية على جسدها شبه العاري، وضعتها على صفاء كي تمنع النفور الحاصل بين مشهد الموت مع مشهد العري.

لا تعرف المرأتان، ما هو السبب الذي جعل صفاء، تتخلى عن ملابس العمل، في هذا الوقت الحرج الصعب، بينما هي أصبحت محط كل

الأنظار، تعلمان أن لديها بعض الجنون، لكن ليس الى هذا الحد، في هذه المصيبة؟
لكن رنا العاقلة التي تفكر دائماً وكثيراً في كل الإفعال وردودها، أيقنت أن صفاء تريد التعبير عن نكبتها، بطريقتها الخاصة، تعّبر عن فقدانها للرجل الذي هو زوجها وحاميها من شرور الدنيا، فهي مهما بلغت من السوء معه، أو تسبب هو بالسوء في حياتها، تبقى رهينة ماضيها معه، يجب أن تفهم أنها بقيت وحدها، يجب مراعاتها في هذا المصاب.
سمعت رنا البارحة، أنها كانت مستاءة من زوجها بشكل عجيب، حتى قبل أن يعمى ويفقد رجولته ، قالت للرجل " هو أنسان فاقد الرجولة والحياء والغيرة قبل فقدانها أثر الحادث "، ذهلت رنا لما سمعتها هكذا تقول للرجل "أنه في ليال كان يتركها لوحدها مع أحد زملائه، يغادر البيت، بحجة جلب المزيد من الخمرة، يغيب أكثر من ساعتين أو أكثر، لن أخبرك كيف كنت أحرص الا أفقد شرفي بسبب هذا الزوج المريض، كنت أقفل باب غرفتي علي بالمفتاح، وأترك زميله ملطوعاً في الصالة، لأنه لا يحق لي طرده، يحول يومي الى جحيم إذا طردته ، حتى يأتي، لن أخبرك كيف كان يعاملني لما أكون عفيفة، بعض الرجال لا يحبون العفة، حياتي معه صارت عبارة عن شريط من المآسي، أرسل ولدي الى ألمانيا، حتى يتفرغ الى عبثه ومجونه، لا يشتاق الى ولدنا، ألا بعد أن أصيب بالعمى وفقدان رجولته". تذكرت رنا أن الرجل قال لها: "أنا سأمنحك الحنان، سترين في الغد او بعد غدٍ كيف أتصرف".
تتطلع عيون الثلاثة عماد وأحلام ورنا للبحث عن هليل، الذي مازال يدور في إرجاء البيت الغامض الكبير، بحثاً عن الرجل كبير السن الذي اختفى فجأة، في هذا الوقت بالذات، الذي يجب أن يكون فيه موجوداً

معهم، ثمة جثة رجل عراقي، دفعت به الاقدار ليرحل الى العالم الآخر في مكانٍ بعيدٍ عن وطنه.
بعد أن وضعت رنا البطانية على جسد المنكوبة صفاء، أخذت تشعر بالتعاطف معها، ومشاركتها مصاب الفقد.
جاء هليل يسير بخطوات سريعة غاضبة، معه الرجل كبير السن، الذي هرع الى جسد الضرير يتفحصه، أرتعش وتمتم وقرأ الآيات القرآنية وحوقل وهلل وسط نظرات ساخرة من هليل ورنا، كانت أحلام تراقب هليل وقلبها معه، تتمنى أن يكّف عن غضبه المستعِّر، فالرجل قد مات، هذا هو قضاء الله وقدره، هذه ساعته المحتومة، تخاف أحلام عليه من أن يتمادى كثيراً في الصراخ على الرجل، بعد أن زعق بما فيه الكفاية داخل الرواق.
بعد أن نهض الرجل كبير السن، أخذ ينظر الى الجميع، نظرات فيها عطف وانكسار:
- أظن أصيب بسكتةٍ قلبيةٍ.
لم يجب أحد على قوله، غير أن هليل رده:
- علينا أن نأخذه الى المستشفى للتعرف على أسباب الوفاة؟ لأن في هذا البلد قوانين محترمة ترعى حقوق كل الناس حتى الموتى.
تعرق الرجل كبير السن ومسح العرق بإصابع مرتجفة عن جبهته، ارتبكت شفتاه وهو يقول:
- لماذا نأخذه الى المستشفى، نغسله هنا ونكفنه، لدينا مقبرة قريبة.
رفعت صفاء رأسها الى هليل، ظهرت الدموع على وجهها، لطخ كحل عينيها وجهها بخطوط سود، لا تعرف ماذا تقول، فهي لديها كلام كثير لا تريد البوح به خوفاً على حياتها.
خاطبها هليل:

- ألا تحتاجين الى شهادة وفاة، هناك حقوق شرعية وقانونية بينكما.
صرخت:
- لا أريد إي شيء بعد الآن.. أريد ولدي فحسب.
أصر هليل:
-لابد من أخذه الى المستشفى لنعرف سبب الوفاة.
التفت الرجل كبير السن الى الرواق، صاح بصوتٍ غاضبٍ، جاء ثلاثة شبان يلبسون ملابس سود، أحاطوا بهليل، أخذوه الى الرواق المظلم.

36

وُضع هليل في السرداب مكبلاً، قُيدت يداه الى الخلف، أجلس الى كرسي حديدي، قدماه مربوطتان بشريط لاصق.
عند منتصف الليل، زاره الرجل كبير السن، معه إثنان من الشبان، أحدهما يحمل فانوساً، والثاني جلب كرسياً بنابض يمكن طيه بسهولة، وُضع للرجل، جلس، نظر الى هليل، الذي ظهرت آثار الإجهاد والتعب ترتسم على وجهه، برغم مكابرته بعدم إظهار ضعفه، رسم الرجل كبير السن على وجهه أبتسامة صفراء وهو يقول له:
- أعرف الاسئلة التي تدور في ذهنك، صدقني، لم أكن أنا السبب في موت الرجل.
- لماذا ترفض أرساله الى المستشفى لمعرفة أسباب الوفاة؟
التفت الرجل كبير السن الى الشابين، حرك أصابعه بحركة ذات معنى، أنصرف أحدهما، بعد لحظات، جلب صينية مغطاة بشرشف أخضر، كشف الرجل عن محتويات الصينية، كانت وجبة طعام، دجاجة مشوية وخضار وخبز..
بهدوء ورباط جأش:
- لا أريد إيذاءك، أنت أنسان بسيط، تبدو طيباً، كُل طعامك وفكر جيداً، أنني قد أعمل إي شيء إذا ما تهددت حياتي ومستقبلي!
ألتفت الى الشاب الآخر، حرك أصبعيه، وقف هذا خلف هليل، حنى جذعه، فتح القيد عن يديه،
خاطبه الرجل بوّد:

- الآن كُل.. أنا عراقي مثلكم، لا أعتقد إنك تريد أن تؤذيني بلجوئك الى القانون.
ظل هليل يراقب الثلاثة، تركوه لوحده، أقفلوا الباب عليه، عاد الرجل كبير السن الى المجموعة، وجد أحلام ثائرة، لا تهدأ من الحركة والغضب والزعيق، لما دخل الرجل، الى صالة منامهم، أمسكت به أحلام من ياقته:
- وين أخذتوه، أسمع، إذا لم يخرج الآن، سأذهب أنا الى مركز الشرطة لإبلاغهم بجريمة القتل. هنا القانون قانون حقيقي.
وضع أحد الشباب المرافقين يده على فمها، حملها الشابان الآخران، اتجهوا بها الى السرداب، حيث يحتجز هليل، أدخلوها عليه، أقفلوا الباب عليهما، جلس الرجل كبير السن بالقرب من عماد ورنا، صامتاً.
شددت رنا:
- أنا أعرف ماذا قالت لكَ، وبم أجبتها، في ليلةِ التدليّك والمساج، سمعتُ كل شيء. أتريد أن اذكّرك " أنا سأمنحك الحنان غداً أو بعد غدٍ، سأتصرف"، وها أنت قد تصرّفت فعلا.
ينظر إليها الرجل وهو يغلي، والى زوجها الصامت الخائف الذي وضع رأسه بين ركبتيه، ينظر بحقدٍ وخوفٍ على مصيره، إن أكتشفت السلطات ما قام به، بدا كأنمّا يفكّر بطريقةٍ يتخلص منها هي الآخرى، تستمعُ صفاء الجالسة تنحب بجانب زوجها المسجى، الى كلام رنا، أزداد خفقان قلبها، هي لا تعلم ماذا جرى لزوجها؟ كيف مات؟ لكنها تتذّكر الحديث الذي جرى بينها وبين الرجل في تلك الليلة.
زادت رنا بالقول:
- أعلم أن هذا المسكينة، امرأة طيبة على نيّاتها، أصغت إليك بقلبٍ مجروح، جارتك بالكلام، لم تُفسّر كلامَك جيداً، وانت تعتزمُ قتل زوجها!

تنظر رنا بمودة وإنكسار الى صفاء، المغطاة بالبطانية، بدأت صفاء تبكي بصوتٍ مرتفعٍ.
نهضت رنا وجلست بجانبها:
- لا ينفعك البكاء الآن عزيزتي، لقد تخلّص الرجل من زوجك لإسبابٍ تافهة، حتى يتفرغ لكِ، فهل أنت موافقة على تصرفه؟ هل تريدين البقاء عنده؟
صفاء بصعوبة تتحدث:
- أخبريني ماذا يجب أفعل الآن؟
برباطة جأش وهدوء:
- سأخبركُ الآن، ماذا يجب عليك أن تفعلي، أن هذا الرجل العراقي الغريب، هذا الذي يقف بريء مثل الأطفال، أنهى حياة أنسان مسكين أمام عيوننا، ولم يخف من الله، لم يخف من القانون الصارم في هذه البلاد، كانت كل سعادة زوجك القتيل، هو أن يصل الى ولده البعيد، لكن هذا الرجل، دائماً وعوده كاذبة، لا أدري لماذا صدقناه، لايريد الغريب غير أن يعمل على إرضاء نزواته المريضة، أنظري ماذا فعل بنا، لم يكتف بقتل زوجك، بل سيأخذك إليه، لتلبي رغباته، لا نعرف ماذا يخبئ لنا من الدواهي، هل تريدين أن تعرفي ماذا يجب عليك أن تفعلي؟
نطقت صفاء بلهفةٍ وخوف وهي ترتجف:
- نعم.. نعم ماذا يجب أن أفعل؟
التفتت رنا الى الرجل، قائلةً بتحّدٍ:
- يا رجل، لا نريد حريتك المزعومة، دعنا نرحل فحسب، نحن نتدبر أمرنا لوحدنا، نريدك أن ترجع لنا أحلام وهليل، سنغادر هذا المكان، سنغادر هذه الغابة المظلمة، بمجرد أن تتركنا في حال سبيلنا.. وانت يا صفاء هل تأتين معنا؟

ذعر الرجل، فهو لا يريد ان تذهب صفاء معهم، قام بكل هذا العمل من إجلها، قال لها غاضباً:
- سأطلق سراح البنت والولد، ولكن صفاء تبقى هنا رهينة عندي، (بتردد وخوف) من يقول إنكم لن تخبروا السلطات.
كادت تصرخ به رنا، غير إنها تمالكت نفسها: قالت:
- بقي الأمر يخص صفاء نفسها.
التفتت صفاء منكسرة الى الرجل العراقي الغريب:
- أنا سأبقى هنا، المهم، إنك تطلق سراح هليل واحلام.

37

بعد ساعة، أطلق سراح هليل وأحلام. بقيت صفاء تبكي وهي تضع رأسها على جثة زوجها. حمل الأربعة حقائبهم، غادروا البيت الغامض، يسيرون بخطى متعثرة، وسط الغابة المظلمة، لا يعرفون الى أين هم ذاهبون.

تمت